

An illustration of a woman with long dark hair, wearing a dark sleeveless top and a light-colored skirt, standing in a room. To her left is an easel with a dark canvas and a vase of brushes. Behind her are wooden shutters and sheer curtains. The floor is covered with a dark, patterned rug. The title 'عنايات الزينات' is written in white Arabic script across the middle of the image.

عنايات الزينات

الحب والصمت

رواية

المكرهسة

الحُبُّ وَالضَّمَّتْ

رِوَايَةُ مِصْرِيَّة



mohamed khatab

المكتبة العربية

تصدُّرها

وزارة الثقافة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية



الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

الحُبُّ وَالصَّمْتُ

رِوَايَةٌ مِصْرِيَّة

عنايات الزنايات

الناشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالمقاهرة

١٩٦٧ - ١٣٨٦

نَفْسِي

كنت أتصفح الكتاب الغريب . وأقرأ سطورہ الحاملة وأتخيل المؤلفه التي
التي كتبته . كانت الكلمات تسيل رقة وعذوبة . في إحدى الصفحات تقول
المؤلفة :

لبست ثوباً سماوياً باهتاً – وتذكرت ملاحظة أخى عن تفضيلي للألوان
الباهتة . وردى عليه بأنى أحب هذه الألوان لأنها تجعلنى غير مرئية .

كنت أحب أن أتخفى فى لون باهت تضع فيه معالم جسمى حتى لا ترائى
العيون المحدقة التي تنلفت فى كل مكان .

كانت أنوثتى التي تعلن عن نفسها دون أن تأخذ رأى – تفضحنى –
وتخجلنى .

وفى الشارع حينما كنت أسمع كلمات الاشتهااء كنت أتمنى لو انشقت
الأرض وابتلعتنى .

كانت كلمات الاشتهااء ترعبنى وتشعرنى أنى أقرب شىء إلى الخراف
المعلقة من ذيلها تغرى بالأكل .

وهى تصف الحب على لسان البطلة قائلة : كانت يده أول يد تمتد إلى

بدفء الصداقة .. بعاطفة المشاركة .. وقد هزئت لمسة الحنان تلك .. عندما
قال إنه سيرك لي التذكرة على الباب ذهبت أم لم أذهب ..

وبدت لي التذكرة في تلك اللحظة صك حرية .. حريتي في أن أذهب
حريتي في أن أقبل صداقته أو أرفضها وبدا هذا شيئاً بديعاً . أن أكون حرة
في أن أختار من أعرفه ..

وفي الرابعة كنت قد قررت أن أذهب إليه .. وخلق لي قراري آلاف
العوالم السحرية في حجرتي . ولم أستطع النوم ولا حتى الرقاد مفتوحة العينين
في الفراش ، قمت أرتب الأشياء التي سأذهب بها إليه .. فتحت الدولاب
وأخرجت ثوباً رمادياً باهتاً.. ولكن لا.. أنا لا أريد ألواناً باهتة بعد اليوم..
أنا أريد لوناً إيجابياً .. لوناً يؤكدني .. ويوجدني أمام عيني .. أنا أريده أن
ينظر إلى ويعرف تماماً أنني أمامه ..

في الخامسة تماماً كنت هناك في الكازينو أنتظره .. أخذت منضدة على
النيل مباشرة .. وجلست انظر إلى المياه التي تختال بين الصفتين .. وسرحت..
وسرحت .. ليتني نقطة في هذا النهر العريق ... ليتني هذا الطائر الشريد
يقفز من غصن لغصن .. ليتني تلك السحابة المصبوغة بالاحمرار أو تلك النسمة
المجلمة بدفء الربيع .. ليتني هذا الضباب الزجاجي الشفاف .. ذلك الرداء
الذي يغلف النهر والصفاف وهامات العمارات ، والكون يبدو من خلاله
سحرياً لامعاً غير حقيقي ..

ليتني أتحلل إلى ذرات غير مرئية وأنتشر حرة في الزمان والمكان ..
وهي تصف على لسان البطل كيف عادت بأمل خائب وقلب مكلوم..
ومشيت أتعثر في تعاسي إلى الباب لأختفي في سيارة أجرة تحملني إلى
البيت ..

لماذا يبعد عني أحمد وتفارق يده يدي بلا مبالاة ؟ لماذا تموت أفراح
الاهتمام بعينيه ؟ ولماذا يقفل على روحه متاريس العزلة ؟ .. إنه يبعد ويضيع
ويترك يدي في استجداء الرفقة والاهتمام ..

جلست في الشرفة وحيدة أنظر إلى الكون .. وأنأمل السماء .. الغروب
أعطاني معنى حزيناً بأنني يتيمة وبأنني إله صغيراً بلا أب ، بلا نسل ، بلا علاقات ..
الحدران الصماء حولي لا تكلمني .. والصمت حولي بلا لسان .. نادى بائع
بصوت منطوق عادي أرجعني سنين إلى الوراء .. ما أقبح شكل الباب الموارب
وعيون الظلام .

رخص وقتي فجأة .. وأصبح وقتاً عادياً .. واكتشفت أن انتظاري
لأحمد هو الذي كان يقيم زمني ويعطيه المعنى .

وتذكرت في الحال عشرات الأشياء التي أبدأ فيها ولا أنهيها . عشرات
المفارش التي تنتظر غرزة النهاية ، واللوحة المشدودة على الحامل تنتظر اللمسة
وهي تصف بعمق حالات عذاب النفس وتمزق الوجدان الأخيرة ،
شعرت أنني منفية داخل نفسي وفي حاجة ليد تخرجني من داخلي ، أحمد
كان يحاول ، ولكنه كان ما يلبث أن يبتعد ويتخلى عني . صوته هو الآخر
أصبح يأتي إلى من طريق أذني مثل سائر الأشياء .

أنا وحيدة في العالم كله . والناس يبدون مثل نقاط على الأفق الوهمي
البعيد .

أنا منفية عن نفسي ، لا أحد قادر على استصدار عفو عن روحي لتعود
فتحس أن جسدها هذا هو وطنها الصغير الحبيب الذي تملكه .
لو أستطيع أن ألغى وجودي وأوجد في مكان آخر وزمان آخر . زمان
آخر . نعم زمان آخر .

ربما أنا في الزمان الخطأ .

إن مجرد تخيلي دنيأى بدونه - بدون حبيب - يجعلها قفراء خالية من كل جميل . بعده عنى مجرد دنيأى من كل شيء فلا يبقى منها إلا قبح التكرار ورعب الوحدة .

إن أحمد هو الوحيد الذى يتكلم لغتي في بلد لا يفهمنى فيها أحد .
وفي غمرة اليأس تتذكر أحلامها وتكتب كلمات غريبة مثل قطع من الثلج الملتهب : كنت أحلم بأن أكون امرأة خالدة تصنع شيئاً خالداً وتؤثر في الأجيال .

وكننت في الماضي نشيطة ، وحاولت فعلاً . رأيت أن الحياة حولي كانت وهماً . كل شيء وهم ... خيال ...

انكسر شيء كان بداخلي وانهار ، والآن أشعر أني لم أعد أتمنى شيئاً ،
لا الموت ولا الحياة . لا الحب ولا الكراهية . جفاف في جفاف . لا شيء يبكي . لا شيء يضحكني . ومع ذلك فلا ابتسامة لا تفارق شفهي . أهى ابتسامة إشفاق ؟

لم يبق لي إلا ذكرى .

ذكرى أنه ذات يوم بعيد كنت أحلم بأن أصنع شيئاً عظيماً .
وأحياناً تتحول كلماتها إلى تغريدة حزينة من الشعر الرفيع الملهم ،
فتبكي وكأنها تغني . وتهدهد قلباً طفلاً يرتجف .

عندما يلفني الحزن كضباب الشتاء ، وتتساقط بقايا ابتسامات الصيف
كأوراق الخريف .

عندئذ تبكي السائر المسدلة والشمس الشاحبة عند الأفق .

وأغرق في بحور ذكرياتي ذات العودة المسحبة .
وأرى شباني في نضجه عديم الفائدة ... رعيداً ...
وأحس بالتلاشي . لا باني غير موجودة .
ويصبح كل شيء سخيلاً بلامعنى . بلا حقيقة باهرة .
ولا أجد مخرجاً سوى أن ألوذ بكبريائي ، لأحتسى من اليأس .
وأشمخ بأننى عالياً حتى لا يصل الضباب إلى قمى الغالية .

★ ★ ★

هذا الكتاب الرقيق « الحب والصمت » هو الكتاب الأول والأخير
الذى كتبه المؤلفة الملهمه عنايات الزيات . فالمؤلفة ماتت شابة لم تبلغ الثلاثين .
كانت آلام قلبها العبقرى وإنسانيتها المعذبة فوق احتمالها .
أزكى الرحمات على روحها النقية وفنها الرفيع .

(مصطفى محمود)

وقفت وراء زجاج نافذتى أرقب الطريق . الشارع خال موحش ،
ونوافذ البيوت مغلقة مبيتة ، لا حياة ، ولا حركة . الزمن توقف ، والدقيقة
أصبحت ساعات مملة .

وقتي رخيص ، لا أعرف ماذا أفعل به . أنا لا شيء ، ذهبت وجئت
في الحجرة ، ونظرت من النافذة ، وأمسكت بكتاب عدة مرات ، وحاولت
في كل مرة الاستمرار في القراءة ، ولكنني فشلت ، فأقفلت الكتاب ، وانتصر
الفشل كانتصاره الدائم على . منذ موت أخى لم أعد أستمر في أى شيء .
أنا في الثامنة عشرة ، سن الشباب كما يقولون ، ولكنني أشعر أني هرمت
فجأة وأصبحت كهلة .

ها هو الشتاء يعود من جديد ، يهز بريجه شجرة المشمش الوحيدة في
في حديقتنا ، ويبعث قلوبه الرعشة في أوصالى ويشيع الأسى في روحى .
أوراق الشجر تتساقط على أرض الحديقة وتتجمع في زوايا الشارع ، ويتساقط
معها فيض من الذكريات الحزينة في خاطرى . ويدفع بإحساس حزين ساحق
إلى قلبي فيغمره بظلامه ويحتاج نفسى من جديد شعور حاد بضياح ذلك
الشيء الثمين من حياتى بضياح أخى ، بموته ورحيله .

يموت هشام فقدت الاهتمام بنفسى ، بحياتى ، بكل شيء ، فقد كان

باعث بهجتي وخالقي نجاحي ، ولكنه رحل ولم ينتظر ليعرف أنني نجحت
وتخرجت من مدرستي الفرنسية ولم يعد لنجاحي أي معنى . ما فائدة نجاحي
إذا كان هو قد ذهب ؟ ما فائدة أي شيء ، ما فائدة أي شيء على الإطلاق ،
وما جدوى حياتي ، وما جدوى الحياة كلها ؟ رحل هشام ، ومضى بعيداً ،
وتركني مع الوحدة والفراغ ليقتلاني . الوحدة والفراغ اللذان عششا في زوايا
البيت ، وصنعا عنكبوتاً مروعاً يمتص الحياة ويبعث اليأس في القلب .

والآن عندما أعيد النظر حولي ، وأرى ما تحولنا إليه - أبي وأمي وأنا -
لقد حولنا الحزن إلى ثلاثة غرباء ، والصمت أصبح حديثنا . لقد تهشم
غلاف الحنان الذي كان يطوقنا ، وسقط حولنا الموت وباعد ما بيننا . فبعد
موت هشام انفصل أبي عنا . أقام لنفسه عالماً آخر - من صنعه - يعيش فيه ،
وأمي أصبحت كثيرة الصمت قليلة الكلام ، وكان يخيل إلي عندما أكلهم
أنها تنظر من خلالي لترى شخصاً آخر في ملامح وجهي ، ولاتراني أنا ، وأصبح
وجودي أنا اضطراراً ، وخلت حياتي فجأة من أي معنى . فهشام كان الإرادة
التي تقف وراء نجاحي ووراء حبي لأي شيء . كثيراً ما تخيلته ساحراً
قادراً على الإتيان بالمعجزات ، والآن تمر أمامي صورته كما أحببت دائماً
أن أراه وهو يلعب على « المتوازيين » وكأنه روح رفاقه لا يحدها جسد .
أصداء صوته ما زالت ترن في أذني حاملة نفس الكلمات عندما سأله عن
سر حبه لتلك اللعبة ، أجاب يومها دون أن يتوقف عن التراجع : « إنها
لعبة الإرادة . إنها تتيح لي التحكم في جسدي كما تتيح لي دراستي التحكم
في عقلي عن طريق الفكر والفلسفة » . وأضاف وهو يضحك « التحكم
هو مفتاح النجاح » .

وكيف مات ؟ مات باللعبة التي أحبها والتي كانت وسيلته للتحكم
فأصبحت قاتله .

كان يتمرن في ملعب النادى عندما اختل توازنه ففقد التحكم في نفسه
لثوان ، وسقط بثقل جسده كله على رأسه فمات .

يومها دخلت الفيلا فقابلنى السكون . فتح لى عبده السفرجى الباب وفى
عينيه آثار دموع . لم يخفى كعادته ، ولم ترسم ابتسامته التقليدية على شفثيه .
كان وجهه حزيناً جاداً .

وتوجست شراً فعبده كان مرآة شفافة لأطوار هشام . كنت أعرف
مزاج هشام من مجرد النظر إلى وجه عبده عند دخولى من الباب ، وكان
حزنه فى ذلك اليوم يعنى شراً كبيراً ، ولم أسأله . جريت أصعد الدرجات
إلى أعلى ، إلى حجرتة ، وهناك كان يرقد فى فراشه وأبى وأمى عند قدميه .
نظرت فى وجهيهما ، لم تكن هناك دموع فى عيونهما ولا حزن ، فالحزن ثمرة
آلام لها عمر ، وكان يبدو لى فى تلك اللحظة أنهما حزينان منذ الأزل .

وخطوت ببطء إلى فراشه ، وامتدت يدى دون إرادتى فكشفت الغطاء
عن وجهه ، وصرخت أمى وقام أبى إليها وخرج بها من الحجرة .. ونسيانى
فى غمرة بكائهما ، ونظرت أنا إلى وجهه فلم أصدق أن « هشام » يمكن
أن يموت .. ولم يكن وجهه سوى وجه نائم .. فقط بلا أنفاس تتردد فى
صدره .. وبدأ لى ساعتها أن الأنفاس غير مهمة لهشام .. وأنه يستطيع أن
يقوم الآن ويجرى ويضحك ، وأنه أقوى من أى إنسان ، ولن يحتاج إلى
تلك الأنفاس الرخيصة ليحيا .. ومددت يدى أتخس وجهه ربما يخس بملء سها
ويفتح لى عينيه .. أنا أخته نجلاء .. ولكن وجهه ظل ساكناً مثلجاً .. وخيل
إلى أن شيئاً من الزرقة يتسلل إلى شفثيه ، ويتسرب تدريجياً إلى وجهه كله ..
ولأول مرة داهمنى شىء من الخوف منه والحجل من نفسى .. لأننى أخاف
أخى عندما سلبت منه الروح .. وأحسست أنى أتلصص على كيان شخص

لا أعرفه وخيل لى أنه يشيح بوجهه عنى .. ولم أحتمل هذا الخاطر فقد سلمت
لأول مرة بموته .. ارتميت على جسده ، أحتضنه فى هستيريا ، أحاول بصراخى
أن أعيد له الحياة .. ففتح الباب فى تلك اللحظة ودخل شخص حمله إلى الخارج ..
ورحت فى غيبوبة ومن خلالها سمعت صوت خالى اللزج يؤنب أبى على
تركى لى وحدى فى حجرته ولم أسمع شيئاً بعد ذلك .

امتلاً البيت بالأقارب والأصدقاء ، وجاءت أختى (نهى) من إنجلترا
حيث يعمل زوجها فى السفارة هناك .

الكل جاء يعزى .. وامتلاً البيت بعشرات العيون تحديق فى وتفرض نفسها
على وتدخل فى أعماقى .. وأحسست أنى عارية وأن تلك العيون تتلصص
على خصوصية تفكيرى وتفرض نفسها على وتقرأ أفكارى .. وشعرت أن
فرديتى تبتذل وتضيع فى زحمة العيون الفضولية .

حبست نفسى فى حجرتى لأنفرد بحزنى .. وأبكى .. وبكيت أياماً وليالى
عديدة ورهفت روحى ولم أعد أحتمل أى صوت .. وأصبحت لا أعيش
إلا فى السكون وفى الحجرات المغلقة .. وأصبح صوت فتح باب أوغلقه
يفزعنى .. ثم بدأت أهدأ وأتبين الشخص الواقف، أمامى .. وغالباً ما كان
شبح خالى .. جاءت تطمئن على (نجلاء .. لا تحبسى نفسك فى الحجرة ..
ستموتين من كثرة البكاء) .. ولم أكن أرد عليها ، كنت أريد أن أموت
حقاً .. وكان صوتها اللزج يطن فى الحجرة ويلتصق بأذنى ويرفض الخروج ..
وكان يمر وقت طويل قبل أن تضيق ذبذبات صوتها من أذنى .. ويعود السكون .
وآن للجميع أخيراً أن يرحلوا .. ويتركونا لوحدتنا .. وسافرت أختى
راجعة إلى أسرته .. ولست أدري لماذا شعرت أنها ليست حزينه الحزن
الكافى على هشام .. ويومها بعدت عنها .. فالحزن على هشام لا يربط بيننا
وكنتم قد أصبحت أحب حزنى لأنه امتداد لحبى لهشام .

جاءت نادية صديقة الطفولة ورفيقة الدراسة لتقيم معى بعض الوقت..
وكنت فعلا فى حاجة إليها هى بالذات .. فقد كنت أستريح إليها .. ولم أكن
أخجل من أن أعرض أفكارى أمامها .. ولا كنت أخجل من خوئى ولا من
حزنى .. فقد ربطت بيننا الصداقة والرفقة سنين عديدة وبدأت لى فى تلك
اللحظة أقرب إلى قلبى من (نمى) .. كانت صلة القربى بيننا أشد من الأخوة..
فقد عشنا معاً طفولتنا .. كبرنا معاً ولعبنا معاً .. وفتحت قلوبنا فى سن واحدة.
واجتاحنا ذلك الإحساس اللذيد المورق بأنوثتنا .. وداعبتنا تلك الآمال
المبهمة الغامضة .. خيالات الحب الأول .. وفارس الأحلام .. والقبلة
الأولى ولحظات الكتابة وخوف الفراق .. والبكاء .. والدموع .. والضحك
الغريرة الطفلة .. والتغير الخطير الذى اجتاح جسدنا وغير ملامحه .. كل
تلك العواطف الفوارة عشناها معاً .. وعانىها سويأ فتعانقت عواطفنا
ومشاعرنا وكأنها حياة واحدة .

لم تتركى نادىة لأحزائى . كانت تشدنى خارج نفسى وتأخذنى إلى بيتها،
وهناك كانت الحياة تفرض نفسها على فكنت أنسى لبعض الوقت « هشام » ،
وعندما أرجع كنت أعتب على نفسى وأعنفها تعنيفاً شديداً أنى استرسلت فى
الحياة لدرجة أنى نسيت « هشام » .. وأصبح اسم أخى يترادف فى ذهنى
مع سؤالى الدائم عن الموت .. وتخيلته أرضاً مجهولة الشواطئ مطوقة بالغموض
من يكتشف شواطئه لا يعود قط .

ورقدت قلقة فى الفراش .. ودقت الساعة فى هدأة الليل هامة بأن
الزمن مازال يمضى وثيداً ..

اليوم هو فجر التاسع عشر من نوفمبر ١٩٥٠ ، أنا راقدة فى الظلام
وخوف يملأ قلبى .. وتساؤل .. هل هذا تاريخ حقيقى ؟ وهل الساعة تشير
حقاً إلى الثالثة صباحاً ؟

مات أخرى ومات عدد من أقاربي في تلك السنة عن حادثة أو كبراً أو مرض.. تلك الحوادث تبدو لعيني مجرد أسباب واهية تنتهي بها وظيفة الجسد وتأخذ الروح طريقها إلى عالم آخر .

لماذا نوجد ؟ .. ونعيش ثم نموت ؟ أسئلة كنت أسألهما لنفسي وأنا صغيرة ولم أكن أجرو على البحث عن أجوبتها في أفواه الآخرين . والآن بعد أن مرت سنين عديدة .. مازلت أتساءل نفس السؤال مع اختلاف بسيط ، فأنا أعرف أنه حتى الآخرون لا يعرفون الجواب أيضاً .

طفولة حلوة عشتها .. ولكن أحقاً عشت تلك السنين ؟ ذلك يبدو زمناً خرافياً غير حقيقي وهذا اليوم الذي أعيشه الآن .. ستراكم عليه أيام .. وأيام .. وأيام حتى يصبح هو الآخر يوماً أسطورياً بعيداً .. أشك كثيراً إن كنت عشته حقاً من قبل .

ديك يصبح في الظلام .. وينفذ صوته إلى أذني الساذجة .. فيخيل لي أنه يؤذن خصيصاً لي .. ما أنا إلا روح داخل جسد أنثى راقد في فراش.. في هدأة الليل كآلاف وملايين الملايين من الناس .

ولكن فرديتي تتضخم وتعزلي داخل نفسي .. وتفصلني عن الكل .. أحياناً أجدني أنظر من داخل من نافذة عيني إلى الناس والأماكن حولي ولكني لا أتفاعل معهم .. وكأنني قد انفصلت عنهم .. وعن وجودي .. وخرجت من داخل أنفجر وأسمع وكأنه ليس لي جسد يتحرك ويعيش . أحياناً أشعر أنني عشت حياتي من قبل ، فلماذا وجدت من جديد ؟

أنا أحس بالغربة عن الناس . أحياناً أشك أنني أحياء فعلاً وأنني موجودة . سأترك جثتي الحية تعوم على صفحة الليل لتنتقلني للغد ، لأيام أخرى

قديمة .

خرجت بعد ظهر اليوم إلى الشارع .. لم آخذ العربة .. ولم أردد على تساؤل السائق (هل أخرج العربة من الجراج ؟) .

مشيت وحيدة .. لا يصاحبني سوى وقع خطواتي في الطريق الساكن .. ظللت أمشي من شارع إلى آخر .. وقادتني قدماي إلى شارع هادئ كثيف الظلال وتبينت أنه شارع مدرستي .. وبدأ لي المبنى الرمادي من بعيد كوجه حميم مألوف لدى .. وارتفعت خفقات قلبي بالوجيب للمبنى الحنون .. وأرسلت عيني تتبركان بالنظر إليه .. إلى ذلك المبنى العطوف الذي له طابع الأديرة .. وأرسلت روحي تتلمس ذلك الجلال المستر الذي يشع من وراء كل حجر .. وأخذتني الذكريات في دوامتها .. هنا تسكن بضعة من حياتي .. من أجمل سني عمري .. خطت قدماي ببطء حتى لا تجرح هذا الصمت الحلي أو تبذل صدى خطواتي جلال السكون المحيط بي ..

نظرت إلى المبنى مرة أخرى .. وتساءلت لماذا قادتني قدماي إلى هنا .. إلى أبحث عن حقيقة ألوذ بها .. ومدرستي تلك حقيقة قائمة .. لم تذهب بها الأيام .. إنها ما زالت قائمة ..

همس في أذني همس غريب .. ومن يدريني أن هذه الحقيقة لا يمكن أن تذهب هي الأخرى ذات يوم ..

وهشام ؟ ألم يكن حقيقة ضخمة نابضة حية ؟ . وفي لحظة .. انتهت ..
وأصبح وكأنه لم يوجد .. بل إنه تتر على أوقات أكاد أنساه فيها تماماً ..
لاشك أن موت « هشام » الحقيقي هو نسياني له .. وأنه سيظل حياً طالما أنى
أذكره .. فأنا التي أحيا وعن طريقى يحيا هو الآخر ..

طوفت حول المدرسة .. وشقشقت بعض عسافير عائدة إلى أعشاشها ..
ودارت حدأة كبيرة دورة كاملة فى الفضاء المحيط بالمدرسة .. وانقضت
على الأرض .. ثم عادت للتحليق من جديد .. وجلجل جرس الكنيسة يدعو
الراهبات للصلاة .. ومضيت على أصداء صوته راجعة مع الغروب إلى الفيلا ..
ولمى حجرى ..

جلست فى الشرفة وحيدة أنظر إلى الكون .. وأتأمل السماء .. وأعطاني
الغروب معنى حزيناً بأنى وحيدة .. كأنى إله صغير بلا أب ، بلا أبناء ،
بلا نسل ، بلا علاقات ، ألوذ بنفسى وأخافها ، جدرانى السماء لا تكلمنى ،
الصمت من حولى بلا لسان ، جسدى مغلق بلا نوافذ ، بلا أبواب ، أتمنى
التزول إلى الطريق من جديد لأكلم أى إنسان ، أريد الخروج من داخلى
والإحساس بوجودى الخارجى .

تلفت حولى .. ستائر الظلام أسدلت على الكون كله . ما أقبح شكل
الباب الموارب وعيون الظلام .. نادى بائع بصوت ممطوط عادى أرجعنى
سنين إلى الوراء وتسلفت أصوات الليل إلى أذنى .. وتذكرت « هشام »
تدريجياً بدأ الصمت يحتضر وتكلم السكون أخيراً وثرثر .. وأضاء الظلام ..
هزتنى نسمة باردة أدخلتنى إلى حجرى .

أقفلت الشرفة .. وأضأت « الأباجرة » .. وجلست مع نفسى وحيدة .
فى الصباح رقدت كسلانة تحت أشعة الشمس .. وتركته تدغدغنى

وتدلكنى وتركت عقلى يقفز مهوشاً من فكرة إلى أخرى .. تركته هو الآخر
مطلق السراح كبقية أطرافى . تقلبت فى مكانى وفتحت عيني فوجدت
(نادية) واقفة أمامى .. سألتها باستغراب :

— أنت هنا .. منذ متى ؟

— منذ خمس دقائق .. وقفت أتفرج على كسلك .

— وأنت كللك نشاط يا نادية هانم ؟

— يمكن .

— هيه .. وما هى أخبارك ؟

واستدرت أكثر فرأيتها فى بلوزة مزينة بورود حمراء جميلة .

— جميلة بلوزتك يا نادية .

— شكراً .. والآن قومى واجلسى معى كالآدميين .

— أنا كسلانة .. والشمس لذيدة .

— كيف تحتملين العيش هكذا ؟

— ماذا أفعل ؟

قالت فى حيرة :

— لست أدرى ؟ .. ولكن ..

ولم أدعها تكمل كلامها .. أرسلت صوتى فى نغمة ساخرة ..

— هيه ..

فأثارها صوتى وقالت بحدة :

— ولكنك تستطيعين أن تعملى شيئاً بلا شك .. لماذا لا تخرجين من حياتك

هذه ؟

— كيف .. ؟ وإلى أين ؟

- إلى الدنيا .
- حقاً ؟ هكذا ببساطة ؟ وماذا فعلت أنت بحياتك وبالذات ؟
- أنا هنا لأقول لك إنى قد اشتغلت ..
- صحيح يا نادية .. ؟ مبروك .. أنا فرحانة .. فرحانة جداً من أجلك ..
- إذا كان العمل يعجبك حقاً فلماذا لا تعملين أنت أيضاً ؟ ربما شغلك العمل عن حزنك ..
- ونظرك إليها بمعن وقلت :
- حتى أنت تتكلمين كأبى وأمى .. ؟ وماذا يضايقكم من حزنى ؟ إنه شىء خاص بى .
- ولكنه يؤذيك ..
- وأنا أحب إيذاءه .
- قالت نادية فى عتاب :
- نانا يا عزيزتى ، لا تتركى نفسك لهذه الأفكار .
- أنت تقولين هذا الكلام يا نادية .. وأنت تعرفين ماذا كان هشام بالنسبة لى .. وما فائدة أن أعمل أولاً أعمل .. وما فائدة أى شىء على الإطلاق ..
- حاولت نادية مقاطعتى .. ولكنى مضيت فى كلامى .. كنت أسمع معها ما أقول .. وكأن شخصاً آخر انبثق يتكلم من داخلى ولا أعرف أى شىء عما سيقوله فى اللحظة التالية .. كنت أغغم فى نبرات آلىة ..
- كنا نحلم أنا وهو ..
- كنا نتخيل أننا نسافر إلى بلاد بعيدة .. وكنا نسافر بالفعل ونحن جلوس حجرتنا بأعلى الفيلا .. كنا نركب جناح خيالاتنا إلى أى مكان نريده ..

كانت لنا القدرة على أن نفعل أى شىء .. الآن بموته أشعر أنى انتهيت ..
لأننى أمشى فى ضباب .. عجوز الروح مكتهلة الفؤاد . بل لست وحدى
التي أصبحت عجوزاً .. كل البيت . انظري حولك .. هل هذا بيتنا
الذى تعرفينه ؟ كل شىء . مات فيه حتى الورود فى الحديقة ذبلت وشاخت ..
وتركتنى نادية أتكلم وقد شعرت أنى أجد راحة فى الكلام ..
وتندت عيناها بالدموع ..

تشبثت بوحدتى .. وأويت داخل نفسى وأحكمت الرتاج .. وأصبح
 عالمى جدراً نأ أربعة .. وشريطاً أسود من السماء بين ستاثرى الرمادية ..
 سقطت فى بئر الوحدة المظلم باختيارى ورفضت النجاة ، ومضت الأيام
 قديمة كدهور كاملة بلا أحداث .. فالأيام تتابع كصفحات بيضاء بدون كتابة ..
 والزمن يمضى ككل شىء .. الثوانى تتحول إلى دقائق .. والدقائق تنضخم
 إلى ساعات .. ثم يمضى يوم مثل الأمس .. ويأتى الغد .. ويتسرب عمرى
 من مفرق الزمن .. تعبت من العمر الذى ضاع .. ومن العمر الذى بقى فى
 دنيا أنا لست فيها شيئاً ..

لم يعد عند نادية وقت تضييعه معى .. أخذ العمل كل وقتها وكل نشاطها ،
 حتى وقت فراغها كانت تسريح فيه ، أوإذا جاءت تحدثت عن العمل ..
 وجاءت نادية فى يوم .. وقرأت خلال قلقها وتحركها من مكان لآخر
 شيئاً تريد قوله .. وأخيراً هدأت حركتها وقالت :
 نجلاء عندى عمل لك .. معى فى الشركة ، سنكون معاً .. أظن ليس
 عندك عذر لتعللين به .. هيه .. مارأيك ؟
 ابتسمت لمرحها .. وحسبتها على حبها للحياة ولم أستطع إخفاء حسدى
 فقلت وأنا أتأمل حركاتها الراقصة النشوانة :

- نادية .. أتعرفين أنى أحسبك ؟
- ضحكت نادية وقالت بمرح
- جميل هذا .. معناه أنك فى طريقك إلى الشفاء .. ومادام فى مقدورك أن تحسدى الآن فغداً سيكون فى مقدورك أن تحبى .. هيه .. مارأيك فى العمل ؟
- أجبت فى ضعف :
- أنت تعلمين أنهم لن يرضوا أن أعمل .
- ثم أردفت :
- لو أردت أنت لما كان لرفضهم قيمة ..
- لو أردت .. لو أردت .. أنا لا أريد شيئاً .. لاشئ له قيمة حقيقية عندى
- بل هناك أشياء لها قيمة عندك وأنت تحسدينى عليها ..
- ولكن أبى لن يوافق .
- بل سيوافق لو صممت أنت .. ثم إنه سألنى من يومين عن عملى .. وهناً عليه وعندما عرف باسم الشركة .. أضاف بأنها تتمتع بشهرة طيبة وقال أيضاً إن صاحبها ومديرها صديق له .
- وسكنت برهة ثم عادت تسأل :
- ماذا قلت ؟
- أجبت :
- سأحاول ..
- بل ستعملين معى .. ومن الآن ..
- دققت الجرس أطلب كويين من عصير الليمون أغير بهما طعم الحديث وراحت نادية تتكلم باستفاضة عن مدير الشركة وعن طريقة عمله .. وعن أدبه .. وأيضاً عن شكله المهيّب .. قلت لها فجأة :

— نادية .. أنت تحبينه ..

احمر وجهها كله ودافعت عن نفسها وكأن على رأسها « بطحة » :
— أنا ؟ أبداً ، أبداً .

قلت بإصرار :

— نادية أنا أعرفك عندما تحبين شخصاً .. أنا لا أنسى حبك للراغبة (أنجيل)
سرحت نادية بعينها :

— آه .. سور أنجيل .. كانت أيام ..

وشفت عيناها واخترقتني بنظراتها راجعة إلى الماضي ، مستعيدة هزات
الحب الأولى في قلبها وإن كانت هزات شاذة .. نادية طول عمرها فوارة
العاطفة .. في سن المراهقة لم تجد أمامها سوى أن تحب امرأة من جنسها ..
كان الحب الطبيعي في نظر مجتمعنا ونظر عائلاتنا عيباً كبيراً .

انترعت نفسها من ذكرياتها .. ونظرت إلى طويلا وابتسمت في صراحة .
وقالت بالفرنسية وبلهجة كلها نشوة :

— نعم أعتقد أني أحبه ..

وفهمت لماذا قالتها بالفرنسية . كانت الكلمات الأجنبية تخفف من وقع
ومعنى الكلمات وتستر الواقع العارى بغلالة مهذبة .

قامت نادية لتذهب وقمت معها أودعها . سلمت على وأخذت مني
وعداً بأن أكلم أبي في موضوع اشتغالي وأنا حائرة كيف أناقش فكرة أنا
لست مقتنعة بها كل الاقتناع .. لو رفض أبي لما وجدت في نفسي القدرة
على معارضته .

بعد الغداء دخلت إلى حجرة المكتب لأنتظر أبي حيث يتناول قهوته كالعادة . اقتربت من المكتبة أتظاهر بالبحث عن كتاب أقرؤه وحتى أعطى لنفسى مهلة للتفكير .. فربما وجدت ثقب حنان فى جمود أبى أدخل منه للحديث . سمعت وقع أقدامه الخفيفة تدخل الحجرة وتخطو فوق السجادة .. أشاع دخوله فى حركاتى اضطراباً .. وبعث فى قلبى خوفاً وهماً ثقيلاً .. ورأيت دون أن أنظر إليه يجلس فى كرسيه المعتاد . وكما توقعت نشر الجريدة المسائية ، وجلس يقرأ فيها دون أن يسألنى أو يكلمنى فى أى شىء وكأنه ليس فى الدنيا كلها أى حديث يمكن أن نشترك فيه نحن الاثنان .. وبعد لحظات طويلة سمعت أوراق الجريدة تطوى فى يده .. وأملت أن يكون قد وجد الحديث المفقود بيننا .. فاستدرت بلهفة انظر إليه ولكنه قال :

— نجلاء أتريدى أن تقولى شيئاً ؟

قلت فى خيبة وحيرة :

— لا يا أبى أنا أبحث عن كتاب أقرؤه ..

قال بنفس نبرات صوته الخافتة :

— لم أكن أعلم أن لك اهتماماً بالقانون

قلت فى دهشة .. بالقانون ؟!

- نعم بالقانون .. أنت واقفة منذ عشر دقائق أمام مراجع القانون .
وأردف في جفاف :
- هناك شيء تريد أن تقوله .
- تراجعت منهزمة أمام كلماته .. ووقفت أعترف برغبتى فى العمل ..
وكأنى أعترف بخطأ كبير . قلت بدون مقدمات :
- أبى .. أريد أن أعمل .
قال بلا اهتمام ..
- تعملين ؟
ثم نظر إلى يتمعن ، وأكمل :
- وماذا تريد أن تعمل ؟
قلت والرهبة تترايد فى صدرى :
- عند نادىة فى الشركة وظيفة جديدة .
وأردفت فى اضطراب :
- وسنكون معاً أنا وهى .
ثم أضفت بصوت منخفض كأنى أكلم نفسى :
- وأنا أحس بفراغ .
نظر إلى ملياً وقال بسخرية :
- تعملين مثل نادىة بخمسة عشر جنيهاً ؟ كأجر مرغنى السائق ؟
وأكمل بشيء من العطف :
- هل ينقصك المال ؟ لماذا لم تطلبى ؟
امتدت يده إلى المحفظة ، وأخرج أوراقا مالية ..
انتابتنى جرأة مفاجئة فربما استطعت الدخول من ثقب العطف الذى بدأ يفتح
أمامى ..

- أنا فى حاجة للعمل وليس للمال .. إن الفراغ يقتلنى ..
- تشعرين بفراغ .. لماذا لا تذهبين للنادى .. لماذا انقطعت عن صديقاتك؟
عدت أقول .
- أنا أكره النادى منذ موت هشام فى الملعب .
قال كأنه وجد حلاً لكل مشكلاتى :
- إذن سافرى عند جدك فى العزبة . إن التغيير سيفيدك ومنظر الفلاحين وهم يعملون سيجعلك ترضين بحياتك السهلة الموسرة .
قلت فى إصرار جديد :
- ولكن يا أبى لماذا ترفض فكرة عملى ؟
قال فى نفاد صبر :
- لأن فى ذلك نزولاً بمركزنا الاجتماعى .. لأريدك أن تنسى ابنة من أنت ..
وفهمت بصعوبة لماذا هنا نادى وأيد عملها .. لأنه يوافق أن تعمل نادى ابنة الرجل الآخر .. أما ابنته .. لا ..
أعطانى فهمى حماسة مفاجئة .. فعدت أقول :
- ولكن يا أبى ..
ولكنه قاطعنى بقيامه فجأة واضعاً الأوراق المالية بين يدى ، وخرج من الحجرة وأغلق الباب وراءه ، وبدخلى أغلقت أبواباً عديدة واحداً بعد آخر .. وبقيت مع نفسى وحيدة ..
انطويت على عزلى .. وأصبحت لا أخرج من الفيلا تقريباً .. وأزددت هزلاً وبدأت تتنابى الهواجس والأوهام وضخمت الوحدة كل شئ من حولى وأصبح وقتى ظلاماً لا أستطيع تبديده بسراج اهتماماتى الصغيرة ..
وفى يوم دخلت أمى قائلة :
- سيزورك الطبيب اليوم .

— طيب ؟

— سيأتى بعد نصف ساعة .. كوفى مستعدة .

طيب ؟ لماذا ؟ أنا لا أحب أن ينظر إلى جسدى أحد وينقر عليه ويعبث فيه بأصابعه . حرارتى ليست مرتفعة ولست أشكو من شيء .. طيب ؟ لماذا ؟

ولكن بعد فترة وجدت نفسى أطيع الأمر ، فخلعت بيجامتى وتصادف مرورى بجانب المرأة . توقفت لحظة .. وأطلت تأمل الصورة المرتسمة أمام فى المرأة .

لقد أصبحت كالفاكهة المحفوظة .. نفس الأنف والعينين والشم ولكن بلا نكهة ، بلا حياة .

مشطت شعرى دون اهتمام وأنا أفكر .. أنا أتنفس وأنحرك .. أنا حية ولكننى لا أعرف (كيف) ولماذا ؟

بعد نصف ساعة دخلت أمى ووراءها طيب .. جلس قبالتى .. واخترقتنى عيناه دون أن يرانى وهمس بضع كلمات وأمرنى بأن أفتح أزرار ثوبى .. وانسابت السماء كالأفعى تنحس جسدى .. ثم طلب منى الجلوس ثانياً وراح ينقر على ظهرى .. وأمرنى بأن أسعل .. وأقول آه .. ثم تركنى وقام يكتب تذكرة الدواء .. وغازطنى الطيب .. لقد كشف على ككتلة من اللحم وأعظم .. دون أن ينظر إلى عيني ليعرف أن روحى هى المريضة .. وليس هذا الجسد الذى أوسعه تعذيباً بالكشف عليه .

خرج وخرجت أمى معه .. وتركتنى وحيدة .. لم تهتم بأن تجلس معى لحظة أخرى .. أو تأخذ يدي بين يديها لتسألى عما بى .. أو تطبع قبلة حنان على جبينى .

خرجت وتركنتي وحيدة .. لو مت غداً لما اهتمر أحد لموتي .. خطواني
لن تترك أثراً وكأني كنت أمشي على ماء .. أنا لا أعني شيئاً عند أحد.. مات
الشخص الوحيد الذي كانت حياتي عنده كل شيء ..
مات هشام أخي وحبيبي ..

وبعد ظهر اليوم التالى أخبرتنى أمى أننا سنستقبل زائراً فى المساء ...
وأضافت أنه كان صديقاً لهشام .. كدت أقاطعها لولا أن قالت أنه صديق
أخى ... أشاع كلامها بهجة حزينة فى قلبى .. الزائر كان صديقاً لأخى ،
إذن هو صديق لى أنا أيضاً ..

وجاء مع المساء ..

تبادلنا الحديث فى رد سريع .. للحظة خيل إلى أنى أكلم أخى .. إن به من
هشام الكثير .. شخصيته القوية .. نظراته النفاذة وكلامه الذى يصل به إلى
إلى هدفه سريعاً .

بعد قليل تركتنا أمى صاعدة إلى الدور العلوى .. وفى أثرها خرج أبى ...
ودهشت وتوقفت لحظة عن مواصلة الحديث فليس هذا تصرفاً طبيعياً منهما
على الإطلاق .. ولكنه ما لبث أن عاود حديثه فبدد إحساسى بالغرابة ..
شعرت أنه صديق حميم فتحدثت معه بصراحة .. تكلمت عن إحساسى
بالوحدة بعد موت هشام وعن رغبتى الهزيلة فى العمل .. تحدثنا كثيراً
باستفاضة .. وتحدث هو عن طفولة غير سعيدة .

وعندما سلم ليخرج .. أحسست أنى لن أراه بعد ذلك وخيم على حزن
مفاجئ ، ولكن عندما استدار ليهبط السلم إلى الحديقة .. فكرت فجأة أنه جاء

فى مهمة ما . ترى ما هى تلك المهمة التى جاء من أجلها ؟ وبسرعة لمح
برأسى خاطر كالبرق . إنه طيبب نفسانى .. وشعرت فى الحال أننى جرحت
وأنتهم ضحكوا على .. وكيف كنت بهذا الغباء ؟ كيف سمحت لنفسى أن
أحكى له باستفاضة عن حزنى الجليل ؟ عن إحساساتى الصغيرة العزيرة ؟
كيف صدقت أنه صديق لهشام ؟. الكذاب . الكاذبون جميعاً .

لقد أهانونى جميعاً . أهانونى .

بعد بضعة أيام أقام أبى حفل عشاء .. كعشرات الحفلات التى كان يقيمها
قبل موت هشام والتى كانت قد ماتت بموته ..

ودعيت للتزول إلى الحفل .. وأثارت الدعوة دهشتى .. ما هذا الاهتمام
المفاجئ فى ؟ وما وراء تلك الدعوة ؟

فى الماضى كنت لا أدعى للتزول ولم أكن أطلب ذلك .. كنت أفضل
الانزواء فى أعلى السلم لأسترق السمع والنظر إلى الحفل فى أسفل .
الضحكات الصاخبة .. وانفصال الرجال عن النساء فى الحديث والجلسات
كان يثير فى عقلتى تساؤلات . لماذا هذا الانفصال بين الجنسين .. أبى ليس
رجلاً رجعيّاً بل هو تقدمى ليس فى رأسه أفكار الحریم .. وقد حيرنى إصرار
أمى على الجلوس مع السيدات وحدهن .. ومع توالى الحفلات الماضية
استطعت أن أفهم لماذا هذا الانفصال فى الجلستين .. لأن هناك أيضاً انفصالا
بين العقليتين .. واختلافاً فى التفكير .. وتصادماً فى وجهات النظر ..

أستثوباً مماوياً باهتاً .. وتذكرت ملاحظة هشام عن تفضيلى للألوان

الباهتة :

— لماذا تحبب الألوآن الباهتة يا نانا ؟

— لأن ذلك يجعلنى غير مرئية قدر المستطاع .

فأنا لا أحب العيون الممدّقة في .. ولا أستطيع أن أرد لها نظراتها .. إن
النظرات تثير في حركاتي اضطراباً .. وتبعث في رجفة .
وقفت لحظة أخرى أمام المرأة .. أنا ما زلت جميلة بل أزداد جمالا ..
رغم حزن روحي ..

أخيراً استجمعت شجاعتي ونزلت الدرجات إلى أسفل .. أثار نزولي
الحاضرين فالتفت الأنظار كلها إلى .. وأطرقت أنا إلى الأرض وبدأ
الاضطراب يسود حركاتي .

تقدم أبي في تلك اللحظة .. أخذ بيدي وراح يقدمني لأصدقائه .. ثم
توقف عن تقديمي لبقية الضيوف .. ونظر تجاه الباب .. وأرسلت نظراتي
تجبر وراءه كجرو ضعيف ورأيته يتجه إلى رجل طويل وسيم له بضع
شعيرات بيضاء تجمل فودية وتزيده وسامة ومهابة .. خطا الرجل أيضاً
ناحيتنا وسلم أبي عليه بكلتا يديه وقدمه لي :

— طاهر (بك) مدير الشركة المتحدة للطباعة والنشر . نجلاء ابنتي .

هذا إذن صاحب الشركة التي تعمل بها نادية .. الآن أفهم لماذا أحبته ..
لأنه في سن أبيها الذي كانت تحبه كثيراً .

تحدث الرجل كثيراً عن العمل وتكلم خاصة عن نادية .. أثني عليها
وقال إنها فتاة ذكية وتعمل بتفان وإخلاص .. وأضاف :

كم أريد فتاة مثلها .. لأن العمل يزداد .

هذا معناه مزيد من المال .. ها .. الكثر يكبر ..

— كتر ؟ وهل تعلم عنى هذه الصفة البغيضة ؟

غمز بعينه وأردف :

— أنت تعرف أين تذهب الكنوز .. فأنت طول عمرك محب للجمال .
أمسك أبى بذراعه وقال فى اباقة ..
— تعال ... عندى لك شرابك المفضل ..
ومضيا معاً ونسيانى وبدأت أغرق فى بحر المدعوين لنصدمنى أمواج
أحاديثهم .

انزويت فى أحد الأركان وجاء عصام ابن خالتي ، وراح يثرثر معى دون
اهتمام ، وراحت عيناه تدوران فى الحجرة تبحثان عن شىء آخر يثير
الاهتمام .

انجهت شريفة أخته ناحيتنا .. سلمت على بحنان .. وراح عصام يسألها
عن حملها الجديد .. وماذا تتمنى أن يكون مولودها .. وقفت حائرة لا أجد
كلمة أقولها مع أنه موضوع نسائى بحث .. حتى مع شريفة لا أجد ما أقوله
لها والحديث مفتوح وأى كلمة سأقولها ستسمعها باهتمام .. ولو كانت كلمتى
سخيفة .. ولكننى لم أتكلم .. ووقفت بينهما حائرة ضائعة .. أين دنيائى ؟
انتشلتى صوت أبى من غرقى ..

— ماذا تفعلين يا نجلاء .. كفى حديثاً مع عصام وشريفة .. وتعالى معى
قليلاً ..

أخذنى من يدى ومشى بى راجعاً إلى طاهر ..
— ما رأيك فى نجلاء يا طاهر ؟

لماذا يفعل بى أبى هذا ؟ لماذا يضعنى فى هذا الموقف السخيف ؟ ماذا
سيقول ؟ الرجل سيجاملنى طبعاً ؟ وأنا أكره هذا النفاق .
— فيها من نادية الكثير .. ليس شبهأ .. لكن روحاً ..
غريب .. ظننت هذا الناشر النصف المتعلم لا يجيد الكلام .. ولكنه قال

شيئاً حقيقياً .. حقيقياً جداً .. ثم توقف عن متابعة حديثه ونظر إلى نظرة نفاذة
واستدار محدثاً أبي عن فكرة طرأت على رأسه فجأة ..
— ما رأيك يا عبد الله أن تعمل نجلاء معي ؟ ستكون في عيوني ، أنت تعلم ..
نظر أبي إلى وقال بدهشة ..
— ماذا تقول يا طاهر .. نجلاء تعمل ؟
ولكني أحسست أن دهشة أبي ليست حقيقية .
وقاطعه طاهر ..
أتبخل بها أن تعمل معي ؟ قل لي ماذا تفعل بكل وقت فراغها ؟ تذهب
إلى النادي ؟ تخرج مع صديقاتها ؟ وبعد ، العمل ليس عيباً .. المستقبل للعمل
ثم إنها ستكون مع نادية صديقتها ..
قطع طاهر حديثه فجأة ونظر إلى باستغراب وقال :
— لماذا أنت صامتة يا نجلاء .. تكلمي قولي رأيك ..
ابتسمت ولم أقل شيئاً .. وحلالي أن أرقب اللعبة التي يلعبها الاثنان أمامي .
قال أبي وقد استسلم للحصار الوهمي من كليتنا ..
— اتفقتم على .. ماذا أقول ؟ .. موافق ..
ولبثت برهة أفكر .. أبي لا يوافق بهذه السرعة وخاصة على أمر رفضه
من قبل .. إن الموضوع يبدو مدبراً بين طاهر (بك) وأبي .. وهذه الحفلة
لم تقم إلا لكي تأتي موافقة أبي عابرة وعادية .. وحتى لا يبدو أنه نزل عن
كبريائه .. ولكن لماذا لم يختار لي عملاً آخر ؟ ربما كان الطبيب النفساني هو الذي
أشار عليه بذلك .. ربما أراد أن أكون مع نادية وفي شركة مديرها صديقه .

أيقظتني فرحتي بالعمل مبكراً في الفجر .. فوقفت أرقب الطبيعة في جمال
تغيرها المستمر .. تلاشي ظلام الليل في نور الفجر رويداً .. وارتحلت خطواته
السوداء تدريجياً تاركة الضباب يغطي المكان ويعطي الطبيعة ألوانها وأبعادها
الحقيقية ويعيد للأشياء ظلالها .. واهتزت شجرة المشمش أمام الفيلا ..
وتلألأ ثوب الندى بمأساته المنشورة عليها . وغردت يمامة وانطلقت روحى
تغرد معها .

هذا أنا أيضاً أتغير .. واليوم ليس قديماً كأسمى الماضي ، إنه جديد
وطفل .

ومر الوقت يقربني من موعدى للذهاب لمقابلة طاهر (بك) ولكن داخلني
شعور غامض بالضيق والتردد .. والخوف .. أنا لا أريد أن أذهب .. سأظل
هنا في حجرتي الصغيرة أنظر إلى العالم الخارجى الكبير من وراء ستائر حجرتي
الرمادية أسدنها وأشدها وقتاً أريد . وماذا عن موعدى مع طاهر (بك) ..
سأذهب فقط لأعتذر له .. دققت الجرس أطلب الشاى .. وفتحت الدولاب
لأرى ما عسائ أن ألبس ، وأنا ذاهبة للعمل .. هل أرتدى جوب وبلوز أم
فستاناً كاملاً ؟ هل أنتعل حذاء واطناً أم بكعب عال ؟ هل أنثر البودرة على
وجهى ، أم أتركه طبيعياً ؟

تري هل كان هشام سيوافق على فكرة العمل ؟ .. نظرت إلى صورته على الكومودينو بجوار فراشي أسأله بنظراتي عما يجيش برأسي من أفكار .. ولكنه ظل ينظر إلى نظرتة الواحدة المبتسمة دون أن يعطيني جواباً .. إنه يتخلى عني ويتركني ضائعة لا أجد من أستشير .. رفعت عيني إلى إطار الصورة وتذكرت ملاحظة نادية .

— نجلاء يجب أن تمنحي نفسك فرصة لنسيانه لتستطعي أن ترجعي للحياة .. لم أجب على كلماتها .. ولكن وضعي لصورته أمامي كان يعني تراجع المستمر في ذاكرتي .. فقد راحت الأيام تطمس صورته تدريجياً من خيالي على الرغم مني .. وكنت محتاجة لصورته ليظل رسمه واضحاً أمامي لا يطمسه ضباب النسيان .

دقت الساعة معلنة التاسعة .. فليست جوب وبلوز وانتعلت حذاء بكعب متوسط وأمسكت بحقيبة كبيرة نوعاً .. وظهرت في المرأة أكثر شحوباً .. وقامت القصيرة أطول مما هي في الحقيقة .. وفي طريقي إلى الخارج مررت على أمي وقلت لها :
— ربما سأعمل اليوم يا ماما .

نظرت إلى أمي ولفت قرص التليفون الذي كان بين يديها ولم يبد عليها أنها سمعتني ثم سألت ..
— ماذا كنت تقولين ؟
قلت :
— لا شيء مهم .

إنها لا تهتم بي .. أعمل أولاً أعمل .. مسائل لا تعنيها .. وكأني دائماً في المكان الخطأ .. أو أني الشخص الخطأ وأن هناك شخصاً آخر كانت تتمناه

بدلاً منى ... كان يخيل لى أحياناً أنى جئت إلى الدنيا دون إرادتها .. وأنها كانت تتوقع مولوداً ذكراً فى مكانى .. ياللى .. ولكنى ابتتها ..

لم يكن لى ملاذ غير نفسى .. الكل كانوا غرباء .. وأنا أحاول عبثاً أن أكون على وفاق مع هذه النفس الجموح بداخلى .

نزلت درجات السلم مسرعة إلى الحديقة ووجدت السيارة فى انتظارى ، فتح لى مرغى الباب فألقيت نفسى بها وأنا أرد بتهية الصباح .

مرقت العربة سريعاً فى شوارع الضاحية ثم عبرت الكوبرى إلى المدينة .. همست للسائق باسم الشارع ، بعد دقائق طويلة أصبحت هناك .. أمام مبنى جامد الملامح متعال لم يبادلنى ابتسام قلبى .. ولم يرحب بمعرفتى .. دخلت المصعد المزدحم وألقيت بعينى إلى الأرض .. فلم أستطع أن أرد للعيون نظراتها .. وخيل لى أن انكل يستغرب وجودى ويسخر من وقفى بينهم .

توقفت خيالانى بتوقف المصعد فى الدور الخامس .. وخرجت من المصعد وخطوت إلى مدخل مكتوب عليه اسم الشركة بأنوار النيون الصغيرة .. وقفت فى المدخل حائرة أبحث عن نادى .. ثم اكتشفت بعد لحظة أنى أعوق الداخلين والخارجين بوقفى فدلقت من أحد الممرات وسألت أحد السعاة عن نادى وأنا أخشى أن أكون قد أخطأت المكان كله .. وما لبث أن قادنى إليها فى حجرة صغيرة ملحقة بالغرفة الرئيسية للمدير .. استقبلتنى بالأحضان . جلست على أول كرسي ألمم شتات نفسى .. وقالت نادى فى إشفاق :

— الأوتوبيس مزدحم ؟

وقبل أن أجيبها سارعت مستدرجة :

— نسيت أنك لاتركبين الأوتوبيس .

وابتسمت ولم أقل لها إن هذا التوتربيعته مجرد صعودى فى المصعد المزدحم.
قلت لها بسرعة قبل أن أغير قرارى :

— نادية جئت لأعتذر لطاهر (بك) عن العمل .

قالت نادية فى غضب :

— إياك أن تفعل ذلك ..

وأضافت بغضب :

— كفى جنباً ..

وفى تلك اللحظة دخل طاهر (بك) إلى الحجرة وانتمعت فى تلك
اللحظة فرحة كبرى فى عيني نادية وخطا هو إلى مادا كلتا يديه فى ترحاب
كبير .. واخترقنى عيناه دون أن يرانى .. وسألنى عن الذى فى تودد ..
ثم نظر إلى نادية وقال :

— نجلاء صديقتك من أيام المدرسة .. أليس كذلك ؟

قالت نادية فى تأكيد ..

— نجلاء أكثر من صديقة .. إنها ..

رحت أسمع نادية وهى تشرح صداقتنا فى كلمات .. وبدأت بعيدة عني
فى تلك اللحظة .. فليست تلك الصفات هى التى تكون هيكل صداقتنا ..
ولكننا دائماً عندما نريد أن نترجم العواطف إلى كلمات فإننا نسلبها الكثير
من أعماقها .. نعم إن ما بينى وبين نادية مما لا يمكن وصفه هكذا فى سهولة.
سمعت طاهر بك يضيف إلى كلمات نادية ..

— هذا جميل جداً .. ستعملان سوياً .. وأرجو أن أرى نشاطاً كبيراً من
حجرتكما الصغيرة هذه .

ومضى ببساطة إلى الخارج وكان هذا معناه أنه افترض قبولي العمل افتراضاً قاطعاً ..

وضايقتني هذا الافتراض .. وهممت بفتح فمي لأتكلم .. ولكنه كان قد اختفى ..

وضايقتني هذا الافتراض .. وهممت بفتح فمي لأتكلم .. ولكنه كان قد اختفى .. قالت نادية في ثقة ..

— سنعمل معاً أنا وأنت هنا في هذه الحجرة .. ولكن يجب أن تتعلمي الآلة الكاتبة .. وسنترجم الخطابات معاً ..

وراحت تتكلم وتتكلم .. وداهمني أنا هلع من كلماتها .. وخيل إلى أني سأحمل مسؤولية الشركة كلها على رأسي .. وشعرت أني أتضاءل وأتضاءل ولا أجد الثقة في نفسي على تحمل المسؤولية .. وشككت في لغتي الفرنسية . وخيل إلى أني نسيتها .. أو أني لم أتعلمها على الإطلاق .. هممت أن أبدأ كلاماً أفهمها به أني لأستطيع العمل .. ولكنها استدارت وجلست على مكتبها الصغير .. وراحت تفتح الخطابات غير مصغية لكلماتي وناولتني واحداً منها وهي تقول في سخرية ..

— هيا ترجمي هذا الخطاب .. وأريني أنك لم تنسي الفرنسية التي تعلمتها .. أمسكت بالخطاب وجرت عيناى على الحروف الفرنسية وعمل عقلي بسرعة .. وبدأت أقرؤه لها مترجماً .. ولكنها قالت في شيء من الجدل .. — خذي ورقة وقلماً واكتبي كلمة كلمة ..

أخذت ورقة وقلماً ورحت أكتب وأكتب .. وانتهى الخطاب فناولتني آخر .. ثم رحنا نرتب بعض الدوسيهات في أدراجها المرقومة .. وأخذتني دوامة العمل في رحاها ، ولم أفق إلا على نادية وهي تقول :

- هيا بنا يا عزيزتى .. هل أعجبك العمل إلى تلك الدرجة ؟ . الساعة الآن الواحدة ميعاد الانصراف.
- كيف مضى كل هذا الوقت ؟ الوقت عندى كان مشكلة لا أجد لها حلا.. انتابتنى فرحة وجرأة مفاجئة فقلت لها ..
- نادية سأعمل معك .. ولكن يجب أن تقرئى كل ترجمة أكتبها .. أنا غير مسئولة عن أى خطأ ..
- نظرت إلى نادية بفهم وعطف .. وارتسمت ابتسامة كبيرة حنون على شفتيها أشعرتنى بالأمان والثقة وقالت :
- لا تخافى ستجدين العمل مسلياً .. وسهلاً ..
- رجعت إلى الفيلا وأنا أشعر أن الدماء التى تجرى فى عروقى أصبحت فجأة دماء شابة مليئة بالحياة والعمل ..
- وتناولت غدائى بشهية وحكىة لأبى عن العمل فغمغم بيضع كلمات باردة أطفأت فرحتى المشتعلة فى قلبى فعولت نظراتى إلى أمى .. ولكنى وجدتها مستغرقة فى تفكير بعيد كل البعد عن حديثى .. لم أجد أحداً أحدثه عن فرحتى . فأويت إلى حجرتى ونمت نوماً عميقاً خالياً لأول مرة من الأحلام المزعجة ..
- ذهبت فى اليوم التالى إلى معهد لتعلم الآلة الكاتبة .. ثم إلى الشركة وهذه المرة لم أشعر بذلك الشعور الصبباني الذى أحسسته أول مرة فى المصعد.. اضطرم فى قلبى شعور عميق بممارسة تجربة جديدة هى الحرية .. حرية اختيار عمل .. وحرية تعلم شىء جديد .. وحرية شق طريق جديد..
- وفى حجرتى الصغيرة مع نادية جلست أرتب بعض الأوراق بإرشادها عندما قالت :

— المرتب سيكون صغيراً يا نجلاء خمسة عشر جنيهاً فقط ولكنه رقم مبدئى ..
وطبعاً سيرتفع بمرور الوقت .
قلت لها :

— ولكن يا نادية ما قيمة المال .. انت تعرفين أنى لا أهتم به ..
شعرت فى الحال أنى أخطأت لأن عينى نادية أظلمت .. وقرأت فى
ظلامهما مقارنة سريعة بيننا ، هى تعمل من أجل المال وأنا أعمل لمجرد شغل
وقت فراغى .. فهمت من صمتها أنها جرحت ولكنى لم أدر ماذا قول
لأصلح هذا الخطأ الذى لم أقصده .

ومع هذا فقد فرحت فرحة كبرى لم أكن أتوقعها يوم أخذت أول
مرتب لى .. نعم إن للنقود قيمة كبرى لم أحسها إلا عندما أخذتها ثمرة عملى
وتعبى ..

أصبح نزولى إلى العمل كل صباح يمدنى بتجارب جديدة .. الخروج إلى البلد ، وقفى أمام المحلات .. مشاهدتى لوجوه الناس وهم يسرعون كل فى طريقه .. تساؤلى عما يمكن أن تكون مشكلة كل شخص من هؤلاء الناس الذين أراهم لأول وآخر مرة ثم يتلاشون فى الزحام .. لحظات الانبهار أمام الواجهات التى تعرض أثواباً نسائية وأحذية ملونة .. خروجى كل صباح فرحة .

كنت أشعر أنى أصبحت شيئاً مهماً .

ومضت الأيام مسرعة .. ثم تباطأت تدريجياً .. وأخيراً أصبحت تجر بعضها بعضاً .. وكان هذا معناه أن العمل الذى أحبيته أول الأمر أصبح مللاً يومياً أساق إليه كل صباح ..

فتحت باب المكتب ودخلت .. وتركته يذهب ويحىء نتيجة دفعة يدي .. وخطوت إلى حجرة العمل .. وما زالت أصداء حركة الباب تثبت أنى مررت من هناك منذ لحظات . آه لو استطعت أن أكون موجودة بشخصى وبكل انفعالى فى عملى دواماً ، إذن لما شعرت بهذا الملل .. ولكن ها أنا .. وحالى أصبح كحال بقرة تدور فى ساقية .. يمكن لأى بقرة أخرى أن تحل محلها .. لم أعد شيئاً مهماً .

مر الشتاء على الكون كله ، وبدأت شجرة المشمش فى الحديقة تفقد أوراقها، وبدأت جذوعها العارية باردة مرتعدة فى حاجة إلى دفء الحضرة وحرارة الثمر وكانت فى رعدة مثل ما بها .. وأصبح دخولى الفيلا يزيد إحساسى بوحدتى .. ويشير حنينى لأيام هشام .. فأروح أتذكره من جديد حياً يبعث المرح فى كل المنزل، ولكن صورته كانت تشحب وذكرياته تبهت وحنينى له يتساقط كأوراق الخريف فى زوايا النسيان .

يا إلهى .. كل شىء يتبدل ، كل شىء يتغير ، كل شىء يضع .. أيام عمرى تتسلل واحداً وراء الآخر .. مختلصة أجمل سنى عمرى .. ويدأى-تشبهان عبثاً بلحظات السعادة الماضية ولا سعادة هناك ..

لماذا يجب على كل شىء أن يذبل .. ؟

لماذا لا تورق السعادة إلا لتنطفىء ؟ .

ولماذا يجب علينا أن نموت ؟ .

تسلل ضوء النهار من فتحة الشيش المواربة .. وخطا ببطء داخل الحجرة وترك آثار أقدامه الواضحة على مخمل الظلام .. وتلفت يتجسس على ففصت أنا بين وسائد الفراش .. كنت أكره النهار .. لأنه عيون وعيون تتلصص .. أما الليل فهو غطاء وخصوصية ..

احتجبت الشمس وراء ستائر السحاب .. وانسدلت غيوم كثيرة ..
وتسربت حتى إلى نفسي فصبغتها بالانقباض .
انترعت نفسي من سكون النوم إلى الحركة .. قمت أتمشى في الحجرة
ووقفت بجوار النافذة أنفض ضيق نفسي إلى الشارع .. وجلست بجانبها أتصفح
كتاب الحياة المنشور أمامي .. وقلبي ثقیل .. كل شيء قديم في عيني ..
الناس أوراق صفراء مبتلة ملامحهم وأغلفة ثيابهم لا تحركني .. أحس أنني
سجينة هذا الأسلوب في الحياة ..

إنی أنشد آفاقاً جديدة . أريد انتزاع نفس اللاصقة في صمغ البيئة والخروج
بها إلى دنيا أوسع وأكبر . لقد مللت سماوات بلادى الصافية . أريد سماوات
أخرى قاتمة غامضة ووعوداً تثير في الخوف والدهشة . أريد لقدمي أن تعرف
أرضاً مختلفة . ماذا لو سافرت إلى (نهي) في إنجلترا لأمضي بعض الوقت هناك؟
ولكني سأرجع ثانياً .. وأنا أريد أن أذهب فلا أعود ..

ركبت العربة إلى الشركة .. فتحت الباب ودخلت .. الحجرة خالية ..
لم تأت نادية بعد .. جلست على المكتب وأغمضت عيني ووضعت سبابتي
على أجناني وضغطت ضغطاً خفيفاً فبدأ يتولد عالم من الألوان والظلال ..
عالم سحري جميل .

ومضى الوقت .. وأحسست فجأة أني مراقبة .. وأن عيناً ما في الحجرة
ترقبني فتحت عيني فاصطدمتا بعينين تعيستين تنظران إلى .. بل هما أكثر
من مجرد عينين . إنهما عالم كامل يحكي قصة حزينة .. ولأول مرة أدركت
أن الحزن يمكن أن يكون شعوراً مارداً لا شعوراً خائفاً مستكيناً ،
فالخزن بعينه كان يضطرم أمامي بالتحدي والتمرد والتحفز وكأنه في حالة
دفاع دائم عن نفسه من مجهول يمكن أن يظهر في أي لحظة ليسلب منه

روحه .. تعلقت عيناي بعينيه ولم أستطع سحب نظراتي منهما .. تساءلت ..
هل هناك أحد يمكن أن يحزن أكثر مما حزنت أنا .. ؟

بدا لي لأول مرة حزني كأنه لحظة غاضت فيها ابتسامة السعادة لحظة ثم
ظهرت ثانياً .. أما الحزن في عينيه فهو مدفون في روجه .. مثقل بالثمار
المرّة .. بالقلق .. بالشك .. بالسخرية .. أحسست بشعور عجيب كأن خيطاً
غير مرئي من الود ربط بيننا .. دارت تلك الأفكار بسرعة في خاطري ووجدته
قد قام من مكانه واقترب مني .. وكأن شيئاً قد شده إلى .. سأل .
— هل سيتأخر المدير ؟

قلت وعيناي معلقتان بعينيه :

— لا ..

استدار ينظر من النافذة .. ودست عيني في بعض الأوراق أمامي ، ولم
أرفعها ثانياً وإن كنت قد أحسست أنه عاد ينظر إلى من جديد .

دخل المدير بعد لحظات بضوضائه المعتادة تصحبه نادية وحسين الساعى
حاملًا بعض الأوراق .. ألقى إلى بتحية الصباح دون أن ينظر إلى .. وقد وقع
نظره على الزائر .. ارتسمت ابتسامة كبيرة مزيفة على وجهه ومد يديه
مصافحاً ..

— أحمد .. أهلاً .. أهلاً .. أين أنت يا رجل ؟

همس الرجل ببضع كلمات لم أسمعها .. وقاده طاهر (بك) إلى مكتبه
وأقفل الباب وراءه .. الرجل إذن كاتب وقد جاء ينشر شيئاً من إنتاجه عندنا .

أفقت من شرودي فوجدت عيني سارحتين في وجه نادية ، وخيل إلى أن
نادية تغمز بعينيهما عندما خرج أحمد من حجرة المدير مرة أخرى .. شعرت
به يبحث عني ، ولكنني دست وجهي في كومة الأوراق أمامي ، وقد جينت

وتغلب على ضعفى .. ولكنى حينما شعرت به يقترب من الباب رفعت وجهى
فطالعتنى ابتسامة .. كان يبتسم بكل وجهه فى تلك اللحظة حتى عيناه الحزيتان
ابتسمتا لى من خلال بكائهما الدائم بغير دموع .

وعندما رجعت إلى الفيلا فى ذلك اليوم .. صعدت رأساً إلى حجرة هشام
وطوقت صورته لأؤكد له أنى لم أنسه ..

فتحت عيني في الصباح على يوم جديد قديم .. سأدق الجرس الآن أطلب
إفطاري ثم ألبس وأخرج بالعربة إلى الشركة .. ككل يوم .. ككل يوم ..
ولكن ربما جاء هذا الكاتب الحزين .. ولكن ما شأنى أنا به .. ولماذا
أضعه في روتين حياتى كشىء جديد مهم .. والمكتب يمتلئ كل يوم بعشرات
الرجال مثله ..

تركت هذا الخاطر مهملاً في زوايا فكري .. وعاد يراودنى ذلك السؤال
الخالد عن أبى وأمى .. للمرة الألف تساءلت لماذا لا يهتمان بى ؟ . ترى هل
يريانى حقاً وهل يعلمان أنى أقيم معهما فى نفس القفلا .. لا أظن .. وهل
حقيقة أنهما كانا ينتظران مولوداً ذكراً .. فى ذلك اليوم السعيد التبعس ..
يوم أن جئت إلى الدنيا ؟ لكم تمنيت لهذه الأفكار أن يغرقها طوفان ..
ولكنها كانت تعش فى رأسى .. وكانت تتوالد ..

دخلت الحمام الملحق بمجرتى .. اقتربت من المرأة العريضة على الحائط
وتأملت وجهى برهة .. ذلك الأنف الدقيق والشفتان الرقيقتان .. والعينان
الواسعتان الحلوتان والصدر الناهد .. والخصر النحيل .. والساقان ..
لكم أكره ذلك الجسد الجميل .. وأخجل منه .. إن أنوثته الفائرة

تعلن عن نفسها دون أن تأخذ رأى .. وفي الشارع أسمع كلمات الاشتهااء
ترامى حولى وأتمنى لو انشقت الأرض وابتلعتنى .. إن هذه الكلمات البذيئة
تفزعنى وتشعرنى أنى شىء أقرب للخراف المعلقة من ذيلها تغرى بالأكل ..
استدرت عن المرأة حتى لا أهشمها .. وخطوت داخل البانيو وفتحت
الدش، وتركته يغمر جسدى ورأسى بدفء الماء المنساب فى رذاذ من الفتحات
الصغيرة، وكأنى أحاول أن أغسل جسدى من هذه الكلمات .. لففت نفسى
فى البرنس وخرجت إلى حجرتى .. ارتديت ثيابى ووضعت معطفاً على كتفى
ونزلت إلى الحديقة ..

تلفت أبحث عن زهرة أنظر إليها .. فلم أجد .. ولا وردة واحدة ..
أين ذهبت الأزهار التى كانت لا تخلو منها حديقتنا على مدار السنة ..
هناك فقط فى طرف الحديقة تبتسم لى أقحوانة صغيرة عن خجل ..
وركبت العربة إلى الشركة ..
كانت نادية مشغولة بترتيب بعض الأوراق بين يديها وقالت عندما
رأتنى :

— سأغيب نصف ساعة يا نجلاء .. سأنزل إلى المطبعة .. أبحث عن بعض
الملازم يريد طاهر أن يطلع على بروفاتها ..
قلت :

— ولكن هذا ليس عملك يا نادية ..
وأضفت بشىء من السخرية ..
— أخشى أن أجلك غداً أمام ماكينات اللينوتيب .
ردت بجد ..
— أنا أحب أن أعرف كل شىء فى الشركة ..

كانت نادبة مدلهة فى حب طاهر (بك) الطويل الوسيم المزيف .. وفى شركته .. وفى كل ما يعمله .. وكنت أنا أرى الزيف فى كل حركة من حركات هذا الرجل .. فى ابتسامته .. فى كلماته .. كنت أراه يستعرض وجوده أمام الجميع ، ويتحرك وكأنه يمثل ..

تركنتى نادبة وخرجت .. وأرسلت أنا عيني تتجولان فى الحجرة .. وتركتهما تستقران على الدولاب المعدنى فى جانبها .. الأثاث كله معدنى .. أجزاءه تنحرف فى صرامة عمودية .. ليس به رقة الخشب وانسيابه وثنياته ومرونته .. لم أكن أحب هذا الأثاث المعدنى ..

فتح الباب .. فانقطع تسلسل تفكيرى .. رفعت عيني فوجدت أحمد واقفاً أمامى .. همس بتحية الصباح وسأل عن طاهر (بك) .. ثم جلس .. انتابتنى فجأة موجة من العطس .. فأخرجت المنديل بسرعة ووضعته على أنفى .. ولا بد أن منظرى كان يدعو للضحك لأنه ابتسم .. وشدت ابتسامته ابتسامتى فضحكت وقال هو :

— يلزمك فيتامين (ج) .

قلت :

لم أصب بالبرد سوى هذا الصباح فقد استحمت وخرجت .. استغربت نفسى لماذا أحكى له عن سبب بردى .. هذه أول مرة أتحدث فيها ببساطة إلى شخص غريب ..

مرت لحظات صمت طويلة .. وخيل إلى أنه يبحث عن كلمات يدخل منها الحديث معى .. أخيراً وجد الكلمات ..

— هل تحبين القراءة ؟

أجبت دون أن أفكر :

— نعم .

ارتسمت فرحة على وجهه وعاد يسأل :

— ما هي الكتب التي تحبين أن تقرئيها ؟

صمت .. حيرني سؤاله .. فعاد يقول :

— هل تقرئين كتباً على الإطلاق ؟

قلت في حيرة متزايدة ..

— في الأيام الأخيرة لم أقرأ كتباً .. ولكني أقرأ بعض المجلات والصحف.

أحسست أنه صدم .. ولكن الأمل عاوده مرة أخرى فقال :

— ماذا إذن تقرئين في الصحف ؟

عدت أقول في خجل :

— في الحقيقة لم أكن أقرأ في المدة الأخيرة ..

ضج بالضحك فجأة وقال في مرح :

— اعترفي أنك لا تقرئين على الإطلاق .

أصابتنى عدوى مرحه فقلت :

— أعترف أنني لم أقرأ في المدة الأخيرة ، ولكن ليس معنى هذا أنني لأحب القراءة

ابتسم ونظر إلى من جديد ، وأحسست أن لعينيه الحزبتين أيد تتحسس

وجهي برقة وكان لحنهما سحر ورهبة ..

فتشت أبحت في رأسي عن شيء يرفع من قيمتي أمامه .. وتذكرت أنني

أرسم فقلت على الفور .

— أنا أرسم

شعرت في الحال أنني أتخذ من نفسي موقف هشام .. موقف الأصغر وأني

أنتظر الآن أن يربت على رأسي مشجعاً .. خجلت من نفسي كما لم أخجل طول

- حياتي ، وثمانيت لو أختنى من أمامه ، ورد هو فى ود ..
- حقاً هذا جميل .. إذن أنت تقرئين معارض كثيرة ؟ أقصد تشاهدين معارض كثيرة ..
- عدت أهز رأسى نفياً ..
- قال فجأة بدهشة وبجراحة :
- قولى لى .. ماذا تفعلين بكل ساعات عمرك ؟
- أنا أعمل ..
- فقط ..
- نعم .
- أنت لا تعيشين ..
- أنا لأحب الحياة .
- كيف ؟
- أنا مضطرة فقط لأن أحيا .
- مضطرة ؟!
- لقد وجدت فى الدنيا .. فأنا مضطرة للحياة ..
- أنت غريبة .. كل هذا الجمال والثقافة وتكرهين الحياة ؟!
- ماذا رأيت أنت من الدنيا لتكرهها ؟ ماذا رأيت ؟
- ظللت أنظر إليه فى دهشة وقال هو بعد لحظة :
- أنا آسف .
- لماذا تأسف ؟

- لأنى خرجت عن شعورى..
- أنا الآسفة لأنى أخرجتك عن شعورك..
- لننس ذلك ..
- نظر إلى ساعته وقال يداوى ثورته واضطرابه ..
- عندى موعد هام فى الجريدة يجب أن أذهب .. هل أستطيع أن أترك أصول قصتى عندك لحين حضور طاهر (بك) ؟
- طبعاً تستطيع ..
- شكراً ..

ومضى سريعاً إلى الباب .. واختفى بين ضلعتيه .. وتمنيت لو لم يذهب ..
ولو استمر فى الحديث معى إلى مالا نهاية .. إن فى كلامه صدقاً وصراحة ..
إنه شخص حقيقى غير مزيف .. داهمنى هلع مفاجئ ألا أراه ثانياً .. فهو لم يقل منى سيأتى ..
دخلت نادية إلى الحجرة وشئء من الحزن فى ملامحها .. قالت فى كلمات تقطعة :

- طاهر تكلم فى التليفون .. لن يأتى .. سيسافر إلى الاسكندرية لبعض الأعمال ..

وبقيت أصول القصة معى ... وسهرت الليل معه .. مع كلماته .. إنه يعبر عن حبه للعنلنا بصورة غريبة .. كأنه يكرهها .. إن بين كلماته اتهاماً ..
وأصابع تشير إلى أخطاء عديدة بتصميم ساخر عنيد .. والخوف من الموت يبرز عن خلال سطورہ .. ويبسط سيطرته على الكلمة .. إن فى كلماته ثورة مستترة .. وهو يعبر عن كآبة .. وتعاسة مقيمة فى نفسه .. وبدأت لأول

مرة أفكر بدون أنانية في شخص آخر غير ذاتي .. وأحسست أنني أريد أن أفعل شيئاً من أجله ..

مع أخي كنت أتخذ موقف الأصغر .. الذي ينتظر حناناً واهتماماً دائماً .. كنت آخذ دون أن أعطي .. ولكني الآن أريد أن أعطي .. أريد أن أمد كلتا يدي لأخرج هذا الرجل من كهف تعاسته .. وكان هذا شعوراً جديداً على كل الجدة .

في الصباح صحت نشطة مريحة .. لأني سأراه .. سيأتي لمقابلة طاهر ،
وفي نزولي الدرجات إلى الحديقة .. وفي ركوبى العربى إلى الشركة كانت بى
لهفة لرؤيته وسماع صوته ..

وفي حجرة العمل ظللت أنتظر .. وأنتظر دون جدوى .. مر الوقت
يقرب من الظهيرة دون أن يحضر .. وأخيراً لم أجد بداً من القيام والدخول
إلى حجرة طاهر لأعطيه القصة ..

سألنى ..

— هل قرأت القصة يا نجلاء .. ما رأيك فيها ؟

— تخيم على كتاباته الكآبة ويبدو وكأنه يتهم ..
ولم ينتظر بقية كلامى .. سارع يقول :

— نحن نحب أن نرى الآخرين متهمين ليهون جريرة الأخطاء على أنفسنا
أحسست أنه فهم خطأ ما أراده أحمد .. إن أحمد يهدم لبنى لا ليهون
الخطايا أمام الآخرين ..
أردف طاهر ..

— إنه كاتب متميز لا يمكن تجاهله .. إنه يخطف البصر .. ويثير فيك التحدى .

انت إما معه أو ضده .. ولكنك لا تستطيعين أن تتجاهليه .. أوتقولى
لا بأس به .. عموماً كتبه تأتى بإيرادات كبيرة ..

ويبدو أن دهشة بالغة ارتسمت على ملامحي فقد أسرع طاهر يقول :
- هذا ليس كلامي .. هذا كلامي النقاد .. كل الذى يهمنى أنا الإيراد ..
كانت الساعة القاسية وراء طاهر تعدو ولا تترك فسحة من الوقت كى يأتى فيها
أحمد ..

رخص وقتى فجأة .. وأصبح وقتاً عادياً .. واكتشفت أن انتظارى
لأحمد هو الذى كان يقيم زمنى ويعطيه قيمته ومعناه ..

صرفنى تفكيرى فى أحمد عن الرد على كلام طاهر . تركته وخرجت
إلى حجرتى ، ورغم اليأس من حضوره فقد جلست أنتظر من جديد بأمل ..

مضى يوم .. وآخر دون أن يأتى .. وفكرت أن أسأل نادية عما جرى
 بشأن الكتاب .. ولكنى خفت أن تلاحظ اهتمامى .. وشعرت أن شيئاً حميماً
 وخصوصاً جداً بدأ يربطنى بأحمد .. شيئاً لا أريد أن أقوله لأى إنسان ..
 ولا لنادية صديقتى الوحيدة ..

وفى يوم بادرتنى هى قائلة .. من باب سرد أخبار المكتب ..

— كتاب أحمد إبراهيم سينزل المطبعة غدا ..
 سألتها بوجل ..

— هل اتفقا نهائياً ؟

— لقد اتفقا تليفونياً على كل شىء ..

تليفونياً .. لماذا .. ؟ لماذا لم يأت هو بنفسه ؟ هل قلت كلمة ضايقته هل
 بدر منى شىء أساءه ؟ ولكن لنفرض ذلك هل كان سينقطع عن مباشرة
 طباعة كتابه من أجل ؟ .. لا .. لا بد أن شيئاً ما شغله ..

ومضيت أذا في درب حياتي المألوف .. لا جديد .. لقد حفظت كل دقيقة من دقائق حياتي الخاصة في البيت وفي المكتب .. حتى تكشيرة حسين الساعى التقليدية التى يريد أن يثبت بها لنفسه أنه يحيا .. أبى فى دنياه التى صنعها ودخل يعيش فيها .. وأمى فى حزنها الدائم .. وخطابات متباعدة من (نهى) وبعض صور لها فى الريف الإنجليزى .. مكالمات صغيرة من بنات عمى بالإسكندرية .. وزياة سريعة من شريفة ابنة خالتى .. لاشىء جديد يدخل حياتى .. لاشىء على الإطلاق ..

ومر شهر .. وانتهت المطبعة من طبع الكتاب .. وأخيراً .. أخيراً جداً أتى .. كان أكثر شحوباً وعيناه أعمق حزناً .. وكان يبدو ضعف عمره .. وجاء إلى يهدينى نسخة من الكتاب ..

همست :

— مبروك .

— افتحها .

ففتحتها .. ووجدت بداخلها إهداء : « إلى القارئة التى لا تقرأ ، والرسامة التى لا ترسم . إلى نجلاء » .

رفعت وجهى إليه .. وابتسمت للسخرية فى كلماته .. ودهشت من

أين يأتي بهذا المرح والحزن يملأ نفسه .. لا بد أن الفرحة كانت تطل من عيني
وتفصح سرورى بقلبياه .. فقد وجدت صدى لفرحتي في عينيه .
سألت :

— لماذا لم تأت لترى كتابك وهو يطبع ؟ أليس جميلاً أن ترى الحروف التي
كتبتها في هدأة الليل وحدك .. الحروف التي كانت مجرد ضياب من الأفكار
تتحول إلى أسطر مرصوفة وإلى كيان متكامل في كتاب ؟
ابتسم وأجابني ..

— لقد تحولت إلى أدبية تجيد صوغ الكلمات ..
وبقي في عيني انتظار ليجاب على سؤالي
قال أخيراً وشيء من الأمل يدفع بنفسه على رغبته إلى كلماته ..
— كنت مريضاً ..

شعرت في الحال بشيء في داخلي يتمزق شفقة عليه .. وأحسست ،
من صوته الآمل أنه ليس مريضاً عادياً .. لكنني أبعدت هذا الخاطر عن
رأسي وحول هو الحديث وجهة أخرى .

— والآن كرسامة .. ما رأيك في الغلاف ؟

— إن سواده يدعو لليأس .

قال .. بهدوء مدرس يشرح لتلميذه :

— بل يدعو للأمل .. ألم تلاحظي هذا الشعاع الذي ينير الغلاف ؟ .

— ولكنه شعاع هزيل .

— ككل أمل .

— كنت أحب أن تحدثني عن أمل كبير لا يحد ..

— هذا أمل الخياليين .

- أنتكثر الأمل على الناس ؟
- أنا أبحث دائماً عن الممكن .. ولا أحب أن يترك الناس أنفسهم لآمال واسعة غير ممكنة التحقيق .
- تذكرت في الحال عشرات الأشياء التي أبدأ فيها ولا أنهيها .. عشرات المفارش تنتظر غرزة النهاية .. واللوحة المشدودة على الحامل لم تنته .. شعرت أن تلك الأشياء حية تصرخ في كي أكمل خلقها ..
- أرجو أن تقولي لي رأيك في الكتاب .. بعد قراءته ..
- ولم أقل إنني قرأته .. كنت في حاجة لأن أقرأه من جديد لأبحث عما خفي عني من تفكيره .. قلبت صفحات الكتاب فقرأت بعض العناوين « حطام » « نداء » « أؤمن شيء » .
- قلت :
- أؤمن شيء ؟؟
- الحياة .. أنا أقصد بأؤمن شيء .. الحياة ..
- الحياة أؤمن شيء ؟
- أأست من رأيي ؟
- أنا أرى أن الحياة لا تستحق أن نحياها .. وأن نعاني كل هذه الآلام بسببها وأنا ببساطة لا آبه لها ..
- وتكلمين بعد هذا عن الأمل ؟
- لقد فقدت شخصاً عزيزاً .. فقدت أخي .. فقدت الدنيا أهميتها بالنسبة لي ولم أعد آبه بشيء ..
- وندمت بسرعة .. لماذا تكلمت هكذا .. لماذا كشفت له عن ذاتي .. ولكنه قال بصوت عميق صادق بدد ندمي :

— لقد مررت أنا بمثل هذه الفترة وتجاوزتها إلى إدراك أوسع للحياة ..
ويجب أن تتجاوزيها أنت أيضاً .. فهذه الفترة أخطر مراحل الحياة ..
وأسميها مرحلة تجاوزاً لأنه من الممكن أن تتجمدى فيها فلا تستطيعين
انتزاع نفسك من هذا السحر الشرير أبداً .. اللامبالاة .. وساعتها تكونين
قد خسرت كل شيء .. حياتك ..

أطبق الكتاب بمرح وقال ..

— ما رأيك لو بدأت هذا الاهتمام برؤية فيلم جديد .. ؟ هل رأيت الفيلم
المعروض الآن عن الرسام تولوز لوترك .. ؟
قلت وأنا مازلت أفكر في كلامه ..

— لالم أراه ..

— ما رأيك لورأيتاه سوياً ..

وقفت حائرة لا أعرف بماذا أجيب .. وأخيراً قلت ..

— لا أشكرك على هذه الدعوة .. ولكنى مصابة ببرد .. وكنت أفكر أنى سأقضى
فترة بعد الظهر فى الفراش ..

— أما زال عندك نفس البرد منذ شهر ؟

قلت فى ابتسام .

— لا غيره .. ذهب برد وجاء برد آخر ..

— يجب أن تهتمى بنفسك أكثر من ذلك .. ما رأيك لو تركت لك تذكرة
على الباب .. لو أحسست أنك بخير تستطيعين أن تأتى .. ؟
أعجبني اقتراحه فوافقت ..

وامتلاً قلبى بفرحة كبرى .. حتى أنى أردت أن أتحدث لكل إنسان أقابله

- عن فرحتى . وعلى الغداء لم أستطع كبح نفسي من التحدث مع أبي فقلت..
- بابا أتذكر الكاتب أحمد إبراهيم ؟
- قال بلا اهتمام لا .
- الذى حدثتك عن كتابه الذى جاء يطبعه عندنا ..
- آه أتذكر الآن .
- لقد انتهى طبعه وجاء اليوم ليرى النسخ .
- حقاً ؟
- نعم .. وأهدانى نسخة .
- جميل .
- وشعرت بسخافة حديثي .. وعدم إصفاائه لى ، فسكت..

دخلت حجرتي بعد الغداء .. إلى عالمي الخاص ذي الجدران الثلاثة ..
والجدار الرابع الذي تكونه نافذة بعرض الحائط مسدلة الستائر .. نظرت
إلى فراشي وإلى اللوحة الصغيرة المعلقة فوقه .. ثم انسابت نظراتي إلى الدولاب
وتلمست جوانبه .. واستقررت أخيراً فوق أحد المقعدين اللذين يكونان
ركني المفضل .. الركن الذي أجلس فيه مع نفسي ..

إن بيني وبين تلك الأشياء صلات صداقة وحب .. أكثر من الصلات
التي تربطني بأبي وأمي .. إنها توحشي عندما أغيب عنها وهي تثرثر إلى
بحكاياتها الصغيرة أحياناً .. إننا أصدقاء وهي تحدثني بلغتها الخاصة لغة
الأشياء .. وأنا أصغى إليها وأفهمها .

جلست على أحد المقعدين لأتخذ قراراً ثابتاً بيني وبين نفسي . هل أني
هذه العلاقة ؟ هل ذهابي معه إلى السينما صواب أم خطأ ؟

إن يده أول يد تمتد إلى بدفء الصداقة .. بدفء المشاركة .. وقد هزنتي
لمسة الحنان تلك .. عندما قال إنه سيترك لي التذكرة عند الباب ذهبت أولم
أذهب .

وبدت لي التذكرة في تلك اللحظة صك حرية . حريتي في أن أذهب
أولاً أذهب . حريتي أن أقبل صداقته ومعرفته أولاً أقبلها .. وبدا هذا شيئاً

بديعاً يتيح لي موقفي أن أكون حرة .. حرة في اختيار الأشخاص الذين أريد أن أعرفهم .. وحررة أيضاً في أن أرفضهم .. ولكن هل ذهابي معه صواب أم خطأ ؟

لم أدر لسؤالى جواباً ولا في عيني هشام .. المحبوسين في الإطار المذهب . ظلت هي الأخرى حائرة رغم الثقة التي نبتت في داخلي بعد اشتغالي والتي كانت تزداد نمواً يوماً بعد يوم ..

في الرابعة كنت قد قررت أن أذهب إليه .. وخلق لي قراري آلاف العوالم السحرية .. ولم أستطع النوم .. ولاحتني الرقاد مفتوحة العينين في الفراش .. قمت أرتب الأشياء التي سأذهب بها إليه .. فتحت الدولاب وأخرجت ثوباً رمادياً .. ولكن لا .. أنا لا أريد ألواناً باهتة بعد اليوم .. أنا أريد لوناً إيجابياً .. لوناً يؤكدني ويوجدني أمام عينيه .. أنا أريده أن ينظر إلى ويعرف تماماً أنني معه أراه وأسمع له ..

في السادسة والنصف نزلت الدرجات إلى الحديقة لآخذ العربة ولكني أحسست وأنا أدخل إليها أنني لست أهلاً للثقة التي اكتسبتها نتيجة عملي .. داخل شعوري إحساس بالذنب فشوش على فرحتي بلقاء أحمد ..

كنت ألوز بظلام العربة وأشعر أنني حائرة في صواب أو خطأ تصرفاتي هذه .. والمجتمع حائر حيرتي .. وأمام باب السينما همست ..

— هل من تذكرة باسمي ؟

نظر إلى الرجل وشبح ابتسامة خبيثة يمرح في عينيه ..

— نعم ..

وأعطاني التذكرة .. وصعدت الدرجات وأنا أشعر أن عينيه تحترقان

ظهري وتنخران في عظامي .. قاذبي العامل الآخر على ضوء مصباحه الصغير
إلى مكاني جلست دون كلمة والخوف يمسك لساني ..

وهمس هو ..

— أهلا بك يا نجلاء .

غمغمت بكلام لأذكره .. وبدأت أهدأ رويداً .. وتلفت حولي في
المكان .. أرسلت عيني إلى الشاشة ولكني ظللت بعض الوقت لأرى ولأفهم
ما يدور أمامي .. وأخيراً أخذتني مأساة الفنان إلى القرن الماضي .. إلى حي
افنانين حيث رسم لو ترك أجمل لوحاته التي خلد بها ملهى الطاحونة الحمراء ..
وعندما مددت يدي أودعه .. طلب رقم التليفون ليطمئن على من البرد
الذي ألم بي .. فأعطيتها له والخوف والفرح يمتزجان في قلبي ويولدان شعوراً
مركباً يبهج نفسي .. قال مؤكداً ..

— سأكلمك

في طريقى إلى الفيلا فكرت .. إن مجرد الحوار إلى جانب هذا الشخص
متعة كبيرة .. وشعرت أن شخصيتي تولد من جديد في داخلي .. وتنمو ..

قضيت الصباح أتقلب ضجرة في الفراش .. ماذا أفعل بكل ساعات يومي .. أنظر إلى نفسي في المرآة أمامي .. أتقلب في الفراش .. ما أسخف ساعات الفراغ هذه ولكن لماذا لا أقرأ .. ليس عندي شيء أقرأه .. كيف وغرفة المكتب جدرانها مكتبات .. ربما لن أجد ما يعجبني في كتب أبي الجامدة .. مهلا .. هناك مكتبة هشام المليئة بعشرات الكتب .. ولكن حجرته مغلقة بالمفتاح ..

وحركت الفكرة أرجلى فغادرت الفراش .. أخذت سلسلة المفاتيح من الدولاب وخرجت إلى الممشى .. مرت على أطراف أصابعي .. إلى حجرته .. فتحت الباب ودخلت ووجدت (هشام) هناك .. في كل أشياءه وجدت (هشام) الطفل في أرجوحته وفي سيفه الخشبي ووجدت (هشام) الصغير في مجموعة طوابعه .. حتى الزهور المنحطة في ألبومها الخاص . تفوح منها رائحة الزمن .. ووجدت (هشام) اليافع في بنادق الرش .. وفي السنانير الأتوماتيكية وقباقيب الانزلاق .. وصوراً عديدة تخلده في تلك اللحظات .. واقفاً في غرور الذكر حاملاً صيده من البط على كتفيه .

وأخيراً (هشام) الشاب . الطالب الجامعي .. وصوراً عديدة أخرى له وهو يلعب المتوازيين .. أشياءه كلها جمعتها أمي ورتبتها بعناية فائقة في تسلسل وكأنها قصة حية تتكلم ..

مات (هشام) شاباً .. فهو لن يشبخ أبداً .. مات فى قمة تفتحه ونضجه ..
مات كما يجب أن يموت الإنسان .. مات قوياً ..

أخذت بضعة كتب من المكتبة .. ورجعت ثانياً إلى حجرتى .. وجدت لى
أصدقاء جدد فى الكتب .. أصدقاء لا يخذلونى .. بل يمنحونى آفاقاً واسعة
رحبة وثرأء عريضاً .. مقابل أن أقضى بعض الوقت معهم .

أعطتنى القراءة فرحة غريبة كثيفة ونشوة قلقة .. وأصبحت أحاول أن
أرى الدنيا بعيون مختلفة .. وأخذت أكتب أماكنها ضمن محتويات حجرتى ..
أقمت لها مأوى صغيراً لطيفاً ، دولاباً أخذ مكانه بين الكرسين .. فى ركنى
المفضل .. بجوار ستائرى.

فى الرابعة تماماً تكلم أحمد .. سأل عن صحتى وتحدثنا عن الفيلم وعن
الفن وفاجأتنى آراؤه عن الحياة .. وجعلتنى أناقضه وأتحداه .. وشعرت أنه
فرح بهذا التحدى .. وفهمت أنه يحب لعبة المناقشة ..

كنت قد قررت أن أبقى فى اليوم التالى أيضاً فى البيت .. ولكنى لم أستطع .
فضلت الذهاب للعمل ..

فى الغد إجازتى .. ماذا سأفعل غداً .. فلأذهب إلى شريفة ابنة خالتى
وأقضى الصباح معها .. ومع ابنتيها الجميلتين .. طلبتها تليفونياً وأخذت منها
موعداً للغد ..

وفى الرابعة طلبنى أحمد .. وأخذ منى موعداً لتفرج سوياً على معرض
جديد فى متحف الفن الحديث .. ولم أنذكر موعدى مع شريفة إلا بعد أن
أقفلت التليفون ..

كيف نسيت موعدى مع شريفة بالمرّة .. كيف ؟ لقد ألغت مكالمة
أحمد كل الناس وكل مواعيدى مع الآخرين ..

صحوت في الصباح على أصوات عصافير تشقشق .. تقلبت في الفراش
الوثير ومددت يدي فأدرت مفتاح الراديو .. فانساب لحن فرنسي ملأت
أنغامه الحجرة ، فتحت عيني .. وتقلبت ثانياً في الفراش .. وألقيت نظراتي
إلى ركن من أركان الحجرة . طالعني إطار دقيق أطلت منه أبيات شعر كانت
قد أعجبتني من زمن فعلقتها ..

ثبت أقدامك بثقة وثبات فوق أرض الحياة ..

وكن مخلصاً وحنوناً ..

وافرح لأصغر بهجة تصادفك ..

بذلك تظل نفسك شابة غنية آملة ..

لا تترك شيئاً يضيع منك ..

واجعل من تجاربك الماضية ..

نوراً جديداً يضيء لك حاضرك ومستقبلك ..

بدأت أقرأها كأني أراها لأول مرة .. وبدأت أفهم معانيها كشئ
جديد كل الجدة .. لاشك أن وجودها المستمر أمامي أعدها وألغاه وأفقدتها
كيانها في تفكيري .

في هذا الصباح نبتت بقلبي فرحة .. هناك شخص سينتظرنى .. وربما بقلبه
لهفة إلى لقائي ..

ثم عاد يداهمني نفس الشعور بالذنب .. دخلت حجرة أمي لأقنع
نفسي بأنها راضية عن تصرفاتي .. أعطتني أمي مصروف الشهرى دون أن
أطلبه .. شعرت أني لا أريد أن آخذه وأنى لا أتقبل عطاءها .. أنا أكسب
الآن نقودي بتعبي ..

تركها ونزلت .. ولم تسألني إلى أين .. فمنذ أن اشتغلت أعطاني عملي
حرية ..

نزلت الدرجات إلى الحديقة ورفعت رأسي إلى السماء وبدأ اليوم جميلاً
رغم الشتاء.. وشعرت أن الهواء النظيف الذي ينفذ إلى رئتي قد أرسل خصيصاً
من أجلى ولم يشمه أحد قبلي ..

ركبت العربة إلى المتحف .. وخطوت إلى المدخل المفروش بالخضرة
ثم إلى الساحة الصغيرة الظليلة ووجدت أحمد واقفاً يتأمل النقوش العربية..
أقربت منه وهمست .

— صباح الخير ..

استدار وأشرق وجهه كله .. واحتضنتني العينان الحزيتان بود وقال..

— صباح الخير ..

أمسك يدي ببساطة بين يديه وأبقاها معه .. وصعدنا السلم سوياً إلى أعلى..
خطونا إلى الداخل .. وأخذنا نتفرج على اللوحات .. ألوان وظلال .. وعوالم
مختلفة خلقها فنانون عديدون ..

وقفت أمام لوحة تمثل درجات سلم تصعد إلى أعلى .. وتقع على درجة
منها بقعة شمس .. وعلى أخرى ظل أخضر .. مجرد درجات سلم ولكني
أحببت اللوحة .

لقد نجح الفنان في أن ينقل إلى حبه وودده وذكرياته إزاء تلك الدرجات
ومررنا على لوحة .. وأخرى .. ووقفنا أمام صورة لامرأة مجردة متكئة
على مسند .. واللوحة مأخوذة من زوايا متخفضة فبدت ضخامة فخذيها
ونفور صدرها مثيرين.. ومن آخر اللوحة أطل رأس صغير متناه في الصغر ..

كان إحساس الفنان كله باللحم والجسد . فلم ير في المرأة سوى جسد ..
أنثى فحسب .. بلا عقل .. أو هو لا يأبه لعقل المرأة كثيراً .. غاظتني اللوحة ..
وأحسست أني أريد أن أغطيها بأي شيء .. فلم تكن صورة جمالية ..
ولكن الجنس كان يصرخ من خلال خطوطها الموهجاء .. شعرت أن كل
النساء عرايا وأنا مجرد أداة لذة للرجل .. أذلتني اللوحة فكهرت أنوثتي أكثر .
قلت إنى لا أحب هذه اللوحة .. التفت أحمد إلى بدهشة .. أردفت قائلة ..
إنه يستعرض جسد المرأة برخص وهو يتنذل معنى الجمال الذى وضعته
الطبيعة فيها ..

قال أحمد :

— بالعكس .. أنا أرى هذا جميلاً ..
— أنا لا أعترض على عريها ولكن على الطريقة التى استغل بها الفنان هذا
العري .

سكت أحمد لحظة ثم قال ..

— أتخجلين من جسدك يا نجلاء .. ؟

أجبت كاذبة ..

— أنا لا أخجل منه .

— بل تخجلين .. وتنظرين إلى رغباتك كشئ حقير أدنى منك ..

تلون وجهى فجأة بحمرة الغضب والحجل .. قلت ..

— ليس عندى رغبات ..

قال ببساطة :

— كيف .. أنت إذن تقتلين إحساساتك قبل أن تولد ..

صعقت .. كيف يكلمنى أحمد هذا الكلام الغريب .. فكرت أن أتركه
وأخرج .. ولكنه عاد يبدى إعجابه باللوحة فغازنى أكثر وقررت البقاء
لأدافع عن رأى ..

قال :

— أنا أرى هذا العرى المثير جميلاً .. كالرقص البلدى مثلاً .. إنه فن مثير
جميل .. يعجبنى ..

وجدت نفسى أدخل فى مناقشة لم أكن أتخيل أنى يمكن أن أتكلم فيها ..
قلت :

— تستطيع أن تسميه رقصاً .. ولكنك تخطئ لو أسميته فناً .. إن أى فن
يفتعل الإثارة لا يكون فناً ..
ثم أضفت ..

— وأنا لأحب أن ترقص المرأة لتثير الرجل .. إنه يعبر فقط عن المرأة ..
وحتى ليس عن المرأة اليوم .. بل عن المرأة أيام الحريم .. لقد نزلت
المرأة اليوم إلى شتى الميادين ونحن الآن فى الشارع والأتوبيس والسينما
مع الرجل .. لماذا لا توجد الرقصة التى تجمع بين الرجل والمرأة .. وتشركهما
فى وحدة فنية متكاملة ؟

قال فى إصرار :

— الرقصة الفردية للمرأة لن تموت .. حتى لو وجدت الرقصة المشتركة التى
تتكلمين عنها .. لأن المرأة كانت وستظل أبداً معنى كبيراً يعبر عن الجمال
والتناسق والحب ..

قلت فى دهشة :

— كيف تتكلم عن المعانى الكبيرة المجردة ومن لحظة كنت تمجد الحب والجنس .

— أنا لأفصل هذه عن تلك.. إن المعانى المجردة تعبر عن نفسها عن طريق العقل .. وعنه ينبثق نبع الحب والفن .. والجنس يعبر عن نفسه عن طريق الجسد وأنا لا أحتقر الجنس .. فهو رباط يقوى علاقة الرجل بالمرأة ويحفظها وينتج عن طريقها حياة متصلة دائبة .
فكرت لحظة ثم عدت أقول :

— أتعلم أنه لن يكون هناك تساوي بين المرأة والرجل مهما تكلمنا ..
قال فى دهشة لصيغة اليقين التى تكلمت بها :

— لماذا ؟

— لأننا للآن لم نساو المرأة بالرجل إلا ظاهرياً فقط .. أما فى الحقيقة فالمرأة ما زالت متاعاً للرجل .. بلا رأى ولا حق فى أن تختار الحياة التى تروقها للآن عندما يتحدث بعض الرجال عن نساؤهم لا يقولون سوى البيت أو الجماعة . إن مجرد ذكر اسم المرأة يذكرهم بالفراش والمتاع .. لأنهم يعتبرون اسم المرأة عورة يجب سترها .. إن رجالنا مازالوا يعيشون بعقلية هارون الرشيد وسط مظاهر مدنية القرن العشرين .

— لماذا تصيبين اتهامك كله على الرجل ؟ . إن المرأة لا تخلو هى الأخرى من مسئولية فهى تتصرف فى أغلب الأوقات تصرف الحريم .. ثم إن الرجل أذكى وأكثر ثقافة من المرأة ، وهو فوق ذلك يعولها مالياً والمرأة تريد الحرية بلا ثمن وهى قابضة فى بيتها والرجل يحارب فى كل الميادين .. وهذا غير معقول .. إن الحرية التى تطالب بها المرأة يجب أولاً أن تدفع مقابلها تحرراً اقتصادياً واستقلالاً عن الرجل .

— هو أكثر ثقافة نعم .. ولكنه ليس أكثر ذكاء .. إنه فقط أخذ الفرصة ..
فرصة التعليم .. وفرصة التجربة أما المرأة فقد حرمت لأجيال طويلة من
التعليم ومن التجربة ..
أهمل أحمد ملاحظتي وقال بسخرية ..

— ولكن يوم أن تفوز المرأة بتلك الحرية التي ولدت من أجلها سنين عديدة
ستجد أنها دفعت أكثر مما يجب .. وستمنى أن لو ترجع إلى عهد الحريم
الذي يضايقك اسمه .. لأن كلمة الحرية التي تحببها لها وقع جميل على
الأذن ، ولكن عندما تمارسها ممارسة كاملة ستجدينها شيئاً مختلفاً كل
الاختلاف عما كنت تعتقدينه .. إن الحرية مسئولية .. مسئولية أن تتحمل
صواب وخطأ تصرفاتك ، مسئولية إعالة نفسك وتنسيق ميزانيتك ..
الحرية عمل وفي النهاية سوف يسلبك العمل أنوثتك .. ويجعل منك نصف
رجل ونصف امرأة ..
قلت بإصرار :

— ولكنك تؤمن بعمل المرأة وتحررها اقتصادياً عن الرجل ، ألم تقل هذا ؟
— نعم .. هذا يقتضيه العصر الحديث .. ولكني دائماً أصل بالنتائج إلى
آخرها والنتيجة هي ذلك الجنس الثالث من أنصاف الرجال وأنصاف
النساء .. وقفت غاضبة أنظر إليه .. إنه يرفض الحلول ويحبسني داخل
كلامه الدائري ويسخر من حرية المرأة .. إننا لا نتفق .. إننا نتعارض
ونتصادم انتقلنا إلى لوحة أخرى تمثل شارعاً ووجدته يقول :

— ربما تعجبك تلك اللوحة فليس فيها ما يثير .. ولكنها لا تعني عندي شيئاً
لأنها لا تصور سوى الواقع وأنا أحب الفنان أن يضع بعداً جديداً من
عنده غير مجرد النقل الحرفي للواقع .

كان في لهجته كثير من التحدى .. وأمام لوحة أخرى غامضة وقفت أفكر وأحاول أن أفهم تلك الخطوط المتشابكة الملتفة بعضها ببعض حتى لكأنى قد أصبحت خطأ في اللوحة وظلا ولونا وفهمت ماأراد أن يقول الفنان .. كان يقول بأسلوب الخط وبلغة اللون .. إننا كيان واحد متشابك متداخل .. إننا ملتصقون ببعضنا البعض . النور ملتصق بالظلام .. والنساء بالرجال .. والبنات بالصبيان . في مجتمع واحد يعتمد كله على بعضه .. الحياة فيها وحدة مشتركة ..

صارحته بما فهمت ..
فقال :

— برافو ..

ألقت إليه دهشة ..

فقال :

— أنا أعنيها أنا لم أفهمها إلا منك ..

في الحال مات عدائى له .. وماتت رغبتى في أن أتحداه .. وعادت صراحته وبساطته تأخذنى في أحضانها ..

خرجنا من المعرض وكانت يدى من جديد بين يديه .. وقفنا لحظة نتحدث ورأيت مرغنى يلف بالعربة متجهاً إلى ناحيتى .. أوقفها ونزل يفتح الباب .. نظر أحمد إلى العربة دون أن يفهم أنها لى ..

قال بغیظ :

— هؤلاء الأغنياء العاطلون ذوو العربات الفارحة .. الذين يمحسون قوت

الشعب ، تلفت إلى الناحية الأخرى يبحث عن سركب العربة ..

شل عقلى عن التفكير أمام المفاجأة .. وتمنيت في تلك اللحظة لولم تكن العربة ملكى ..

ولكن مرغى الغنى العجوز كان قد فتح الباب فى تلك اللحظة ونظر ناحيتى وقال :

— تفضلى يا ست ها نم..

نظر إلى أحمد دون فهم .. وألقيت أنا عيني إلى الأرض .. عرضت أن أوصله ولكنه قال :

— شكراً سأمشى على قدمى ..

ركبت العربة كعادتى عندما أكون وحدى بجوار السائق .. نظرت فى المرأة أمامى .. ووجدت صورة أحمد تراجع بسرعة ورأى واضعاً يديه فى جيوبه وماشياً ببطء وهو سرحان .. ترى ماذا كان يظننى ؟ . فتاة عاملة تعمل من أجل كسب المال . ما أنا سوى مدللة تملأ فراغ وقتها بعمل لا تحبه كثيراً .

فى دخولى إلى الفيلا وجدت أمى جالسة فى المدخل . قالت عندما رأتنى :

— ستأتى عمثك وابنها اليوم .. كوني على استعداد لاستقبالهما فى السابعة أو مات إليها موافقة .. وصعدت الدرجات إلى حجرتى .. وهناك فى عالمى الخاص جاست أتساءل .. هل أنا مذنبه لأننى أنتمى لأسرة ثرية بل فاحشة الثراء ؟ ما ذنبى أنا ؟ .. ولماذا يكره أحمد الأغنياء ويسميههم مصاصى دماء .. شىء لم أفهمه فى كلمات أحمد .. وإن أحسست إحساساً داخلياً أنه على حق .. وبدأ لى أنه فى فقره وكفاحه من أجل كتبه وعمله فى الجريدة واقف على أرض شريفة .

فى منتصف السابعة .. وقفت أمام المرأة لأرتدى ثيابى ورأيت جمالى كله وشبابى مطبوعاً أمامى على صفحة المرأة .. ولكنه لم يبهجنى ولم يفرح قلبى .. وجاءتنى كلمات أحمد (كل هذا الجمال والثقافة ولا تحبين الدنيا .. ماذا رأيت

أنت فيها) ماذا رأيت؟.. ترى ماذا رأى هو من الدنيا..؟ لا بد أنه رأى الكثير .
إن في ملامح وجهه بجانب القلق ثباتاً .. وفي نظرة عينيه شخصاً واثقاً من نفسه
وآخر حائراً ولكن ليس في عقله ذلك السوس الذى ينخر فيه مثل عقلى ..
لو أستطيع أن أكون مثله واثقة من نفسى؟ لو أستطيع؟ لو أستطيع؟ .

في تمام السابعة نزلت الدرجات إلى أسفل لأستقبل عمى .. وابنها عادل ..
استرعى انتباعى شىء جديد في نظرة عادل إلى .. إنها تشبه إلى حد كبير نظرة
أحمد .. نظرة هى خليط من الاهتمام والتعجب .. إن النظرتين يشوبهما
شىء من التعجب .. لا أدري له سبباً ..

بعد قليل نزلت أمى وتبادلت مع عمى نفاق القبلات .. وجلسنا نثرثر
عن أزياء الشتاء .. تكلمت عمى عن فراء الفيزون الحديد الذى اشتريته ..
وتكلمت أمى عن العربة الحديدية التى اشتراها أبى .. وتكلم عادل موجهماً
الحديث إلى ولكن بلهجة فيها شىء من السخرية ..

— كيف يسير العمل معك؟

في الحال فهمت مبعث تلك السخرية .. فأنا أصادف مثلها في عملى ..
في لهجة كل الرجال الذين أقابلهم .. إنها لهجة تقول لى من خلال الحديث :
ما الذى أتى بك هنا؟ . هنا ميدان الرجال .. ارجعى من حيث جئت إن
مكانك البيت ..

وانتابنى ما ينتابنى دائماً عندما أسمع تلك اللهجة .. انتابنى التحدى. قلت
بلهجة مماثلة .. وبنفس كلماته :

— وكيف يسير العمل معك أنت؟

تغيرت النظرة بسرعة في عينيه كأنها إشارة المرور .. تحولت فجأة من

اللون الأخضر إلى اللون الأحمر . وأغاظه أنى أسأله سؤال الند للند ..

رد بسرعة :

— على ما يرام ..

ثم غير الحديث ..

— هل رأيت شيئاً من برامج الأوبرا ؟

هزئت رأسي نفيّاً فقال بدهشة :

— كيف ؟

وانتفت إلى أمه ..

— هل تتصورين أن نجلاء لم تر شيئاً من برنامج الأوبرا .. هذا الموسم ؟

انتقلت الدهشة من عيني الإبن إلى عيني الأم .

— كيف لم ترى الأوبرا هذا الموسم ؟ لقد رأينا كل البرنامج تقريباً .. إن لنا

بنواراً محجوزاً باستمرار كل ليلة .

ثم انتفتت إلى أمي قائلة :

— كيف ؟

ردت أمي وظلال من الحزن تخيم على نبرات صوتها :

— منذ موت هشام وأنا لا أهتم بأى شيء .. لقد هدتنى وفاته ..

سقط صمت ثقيل في الحجرة .. لم يبدده سوى دخول عبده السفرجى

بأقداح القهوة . وعندما سلما ليذهبا سألت عادل أمي :

— هل أستطيع أن أصحب نجلاء إلى الأوبرا غداً ؟

قالت أمي بتربخاب كبير :

— نعم يا ابني نستطيع بكل تأكيد .

ولم أجد سبباً للاعتراض فوافقت ، ولكنى لم أستطع منع نفسى من التفكير
فى غرابة هذا الاهتمام المفاجئ بى .

فى التاسعة كان عادل ينتظرنى فى البهو ليصحبنى إلى الأوبرا .. وكانت
تلك أول مرة أخرج فيها مع رجل بموافقة أبوى .. ظللت أتساءل عما وراء
تلك الموافقة من أهداف . والعربة فى طريقها إلى الأوبرا .. ولم أجد جواباً
على سؤالى حتى أفقت على عادل وهو يفتح لى باب العربة لأنزل .. رفعت
عينى إلى وجهه فوجدت نظرة عينيه مختلفة عن نظرة أمس . إنه لا يرى فى
تلك المرة سوى أنثى .. كائن جميل فحسب .. دمية حلوة .. ووردة يزين
بها ذراعه عند الخروج .. وضايقتنى النظرة .. إنها تبخس قدرى وتسخر من
شخصيتى ..

أجلسنى عادل على الكرسي ووضع يديه على كتفى ليخلع القراء ولكن
يديه استقرتا أكثر مما يجب ، وشعرت بهما تضغطان كتفى برفق ثم تحملان القراء
إلى المشجب .

وارتفعت موسيقى تشايكوفسكى الموحية فرسمت آلاف المعانى والأخيلة
وارتفعت الستار .. بدأت أتابع العرض .. التعبير بالجد كلة فى رقصة ..
كل أصبع ، كل ارتعاشة كانت تترجم معنى أو عاطفة .. تدريجياً سعت
ضوضاء هامة بجوار أذنى .. التفت فوجدت عادل يفتح فمه ويقفله يشرح لى
ما أفهمه جيداً .. دون حاجة إليه .. إذن عادل لم يتغير رغم تلك السنين التى
قضاها فى الخارج ، ما زال هو نفس الشخص الذى يفترض غباء الآخرين
 ويفترض أيضاً أنه الوحيد الذى يفهم فى الدنيا .. نعم ما زال عادل هو هو لم
يتغير .. رفيق الطفولة .. المشاكس .. وصديق هشام العبيط .. لم أطلب
منه أن يسكت ، تركته يشرح مادام هذا يعجبه ومادمت لأسمع له .. ألقيت
بانتهاء كلة إلى المسرح ورحت أحلم ..

في الصباح نادتنى أمى إلى حجرتها .. قبلتنى ونظرة الاهتمام تتسع في
عينيهما وتكبر .. أجلستنى بجوارها على الفراش وهمست :
- كل سنة وانت طيبة يا نجلاء اليوم عيد ميلادك .. لقد أصبحت عروساً
في التاسعة عشرة .

ارتعشت في قلبي فرحة .. لأن أمى تذكرت يوم مولدى .. تذكرتنى ..
دست يدها بجانبها وأخرجت علبة زرقاء من القטיפه وفتحتها .. خطف بصري
بريق حجر ماسى يلتمع وتوقف عقلى عن التفكير .. أنا أحب الماس ، إنه
يبرق ويضئ كأنه يحتوى على عشرات المرايا الملونة .. ومع ذلك يظل بياضه
نقياً شفافاً .. فريداً جميلاً في تعاليمه . مددت يدي وسحبت الخاتم .. ودسته
في إصبعي وأخذت أحرك يدي في كل اتجاه عقلى شريط الشمس المتسلسل
من النافذة فتضاعف لمعانه .. وكون على جدى ان الحجرة دنيا من البريق ،
سمعت صوت أمى يقول :

- هل أعجبك ؟

أجبتها .. ورأسى يدور مع البريق ..

- جداً ..

- ما رأيك في عادل يا نجلاء ؟

قلت دون اهتمام ...

— لطيف .. لماذا ؟

— لأنه طلب يدك للزواج .

قلت في دهشة .

— للزواج ؟

ومضت برهة من الصمت .. إذن هذا الاهتمام المفاجئ ليس لى ..
عشرات المرايا الملونة التى تلتصع فى الخاتم الماسى ليست لى .. نظرة الاهتمام
فى عينيها ليست لى .. كل ذلك من أجل الرجل الذى تقدم إلى فأثبت أنى
جديرة بكل هذا لأنى حزت إعجابه .. كل هذا لأن رجلاً تقدم إلى يمنحنى
وسام اسمه .

خلعت الخاتم من إصبعى ووضعته فى علبة وقمت من جوار أمى ..
قالت فى دهشة ..

— لماذا تركته ؟ .

قلت .. فى ثبات :

— أنا أعمل ولن أستطيع لبس هذه الثروة فى يدى كل يوم ..
قالت موضحة ..

— ولكنك لن تعملى .. ستزوجين وتصبحين امرأة عادلة ..

— ولكنى لم أقل لى وافقت ..

— ولماذا لا توافقين ؟

— لأنى ببساطة .. لا أريد أن أتزوج .. أنا أحب عملى ..

ضاعت عيناها وهى تنفرس فى كآنى شخص جديد لا تعرفه .. وقالت
فى صوت حاولت أن تخرجه هادئاً .

- لا ترفضى بسرعة .. عادل غنى ذو مركز .. وهو فوق ذلك ابن عمك ..
وهو أولى بك.

- أولى بى ..

زادتنى الكلمة غضباً .. أولى بى كأنى قطعة أرض .. وهو أولى الناس
بشراؤها .. تركت الغرفة وخرجت حتى لا أنفجر فيها ..

دخلت إلى حجرتى وأنا أحاول أن أتصور نفسى زوجة عادل ولكنى
لم أستطع . أنا أرفضه .. وليس رفضى هذا وليد اللحظة ..

كيف قبل أن أتزوج منه اليوم وأنا لم أحبه قط .. لا أيام الطفولة عندما
كان يأتى ليلعب مع هشام .. ولا عندما بدأت أتفتح وأصبح أنثى .. كان
هو دائماً متكبراً معترأ بنفسه لأنه ينتمى إلى الجنس الأعلى والأقوى .. إلى
الرجال .. وكان دائماً ينظر إلى ككائن أدنى منه .. ولن أنسى ذلك الحوار
الذى دار بينه وبين هشام فى أول يوم العيد الكبير .. كنت قد صحت
مبكرة فى ذلك اليوم .. وصعدت إلى السطح لأرى ذبح خروف العيد ..
كنت فرحة لمظاهر العيد كلها .. لثوبى الحديد الجميل وحنائى ذى الكعب ..
ولإحساسى بذلك التغير الحديد الذى طرأ على جسدى وروحى .. بأنوثتى ..
وقفت بجوار هشام أنفجر على الجزار وهو يمسك الخروف الكبير من قرنيه
ويطرحه على الأرض .. وفجأة سمعت صوت عادل يقول :

- حتى فى الحيوانات للذكر فقط الشرف فى أن يذبح ليكون ضحية ..
أما الأنثى النعجة فلا ..

تدافعت الدموع إلى عيني بسرعة فأخذت أعض شفتى السفلى بعنف
وأحسست أنى رخصت ورخصت .. إلى درجة أقل من الحيوان ..
الولد أولاً ثم البنت .. ولكنى مع هشام لم أكن أشعر بذلك ..

انبثق في عقلي فجأة نور باهر أضاء تفكيرى كله بمعان جديدة .. هل أحببت هشام حقاً ؟ أم أنى كنت منساقاً في حبه كانسياق كل من في البيت ؟ كيف فاتنى هذه الحقيقة البسيطة الواضحة ؟ الآن فقط أشعر أنى لم أكن سوى تابعة لهشام .. كل سعادتى الصغيرة كانت من فضلات سعادته .. مباهج البيت كلها كانت بسببه ومن أجله .. رحلات الصيد وضرب النار ترتب حسب إجازات هشام ، الصور والكاميرات وآلة سينما تشتري من أجل هشام .. لقد عرف هشام مباهج عديدة لم أعرفها .. وظللت أنظر إلى الأشياء العادية التى يصنعها كما لو كانت معجزات .. لا يحق لى أن أشارك فيها ..

الآن فقط أعلم أنى كنت أخادع نفسى طوال تلك السنين ..

نعم .. الحب كله كان من أجله هو .. الرجل .. ولأنه مات .. مات بموته البيت كله .. لا حب .. لا حنان من أجلى .. لا شىء يفرحنى ويدخل البهجة إلى قلبى .. قلبى الوحيد الحزين .

والآن .. ماذا يريد أبى وأمى أن يفعلا بى .. إنهما يريدان أن يتخلصا منى .. يريدان أن يزوجانى . ولكن لا لن أتزوج عادل .. لن يشتري بثرائه ومركزه .. ولن يأخذنى لأنه أولى الناس بى .. مازالت أمامى السنين رحبة واسعة .. وأيام عمرى ثروة أملكها وحدى .. وسأنفقها كيفما أحب .. أناحرة وسوف أتحمّل مسئولية حريقى .. وأخطاء تلك الحرية ..

وجاء أبى يكلمنى فى موضوع الزواج .. سمعت سعاله التقليدى وراء الباب . جاءت اللحظة الحاسمة .. جاءت اللحظة التى يجب أن أواجه فيها أبى كفتاة ناضجة وليس كابنة تابعة له .. هذه لحظة دفاعى عن حريتى .. وعن كيانى كله .. فتح الباب وظهر وراءه بقامته القصيرة الممتلئة .. أشعل سيجارة وقال بلهجة طبيعية .

— نجلاء .. كوفى على استعداد لاستقبال خطيبك اليوم .. سيمر فى الساعة لتنزلا إلى الجواهرجى سوياً لانتقاء الشبكة ..
إنه يضع قرارات حاسمة لتنفيذ بلا مناقشة .

— لن أستطيع التزول إلى البلد يا بابا..

— هل أنت مريضة ؟ إذن غدا . سأعطيه موعداً لغد صباحاً ..
استجمعت كل شجاعتي وكل قوة شخصيتى ..

— بابا . أنا لا أريد أن أتزوج عادل ..

اضطرب .. اهتز السيجار بين أصابعه .. إنه مضطرب هو الآخر ،
إننا متساويان إذن .. إنه ليس أقوى منى .. إننا ندان .. ولكنه قال بنفس نبرات
صوته الصارمة التى تشيع الاضطراب فى أعصابى ..

— بل ستتزوجين ..

بدأت الدموع تخذلنى .. تظهر فى عيني .. تفضح خوفي .. لا .. لا .. لا ..
يجب أن أعتقل تلك الدموع وراء أجفاني .. يجب ألا أسمح لها بالظهور ..
أنا أحتقر هذا السائل المالح الذى لا يعبر إلا عن الضعف والخذلان .. حتى
مع أبى لا يجب أن أظهر ضعفى .. أشعر بشعور الصيد الذى تطبق عليه الشباك ..
فرت دمعة بلهاء من وراء أسوار الاعتقال ..

قال يغربنى ..

— أيتها الصغيرة البلهاء .. سيكون لك بيت جديد وعربة خاصة تقودينها
بنفسك .. ورحلة إلى بلدان أوروبا .

— أنا لا أريد أن أتزوج ..

— لماذا يا حبيبتى ؟

أنا حبيبته ؟ لأول مرة أسمعه يقولها ..

لماذا لم يظهر لى كل هذا الحنان إلا الآن ؟. سكت لحظة ثم تتم فى رقة ..

— نجلاء ، تعالى هنا ، قربى منى ..

أمسك بيدى وشدنى إليه .. أجلسنى بجواره ورفع وجهى .. وقال :

— نجلاء .. انظرى إلى .. لماذا لا تنظرين إلى .. أأنت أنا بابا ؟

صحيح هو بابا .. رفعت عيني ببطء إلى عينيه .. وكانت أول مرة أنظر

فيها إلى أبى مباشرة وعلى هذا القرب .. إن عينيه لونهما عسلى رائق وبهما تساؤل

وفيهما طيبة .. أنا أحب تلك الطيبة .. وأكره هذا التساؤل .. أخذ رأسى

بين كتفه وراح يربت ظهرى بحنان زائد وأحست أنى أريد أن أغفو أو

أبكى إلى حد الإغماء .. وبعد فترة طويلة قال فى مزاح هامس ..

— هل نمت يا نجلاء ؟ .

رفع رأسى وشد أذنى مداعباً .. كان أبى الحقيقى .. أبى الذى لم أعرفه

- إلا اللحظة .. أبى الذى يداعبنى ..
- ابتسم .. وابتسمت وقال :
- لا داعى للكلام فى هذا الموضوع .. إذا كان هذا يضايقك الآن فلنؤجل ذلك .. هه .. ؟
- بل أريد أن نتكلم الآن .. بابا أنا لا أحب عادل .
- وسكت لحظة وأطرق إلى الأرض مفكراً ثم قال فى هدوء :
- ومن قال لك إن كل من يتزوج يحب قبل الزواج .. إن الحب يأتى بعد الزواج وبالمعاشرة والمعاملة الطيبة .
- قلت وكأنى أكلم نفسى :
- ولكنى أريد شخصاً أحبه ..
- هل تحبين شخصاً بالذات ؟ . إذا كان الأمر كذلك .. وكان شخصاً مناسباً فأننا على استعداد أن أزوجه لك ..
- فوجئت وفكرت .. هل أنا أحب أحمد .. ؟ لا لم أصل إلى درجة الحب بعد .. إنها بداية قد تصل إلى الحب .. ولكنها بداية فحسب ..
- أجبت :
- لا .
- إذن .. ليس هناك شخص بالذات .. وعادل لائق ومناسب ومركزه ممتاز .
- سكت لم أعرف بماذا أجيبه .
- أكل هو :
- هل أقول حلا ؟ ما رأيك فى فترة خطوبة تعرفينه فيها أكثر ..
- ولكن عادل ليس غريباً يا بابا .. أنا أعرفه حق المعرفة ..
- لا .. لا .. لقد سافر إلى الخارج ولاشك أن الغربة قد غيرته كثيراً ..

ربما كنت في حاجة إلى اكتشافه من جديداً ..
لم أجد ما أقوله .. فسكت .
- ابنتي حبيبتي .. هاتي قبلة ..
وقبلني على خدي ومضي خفيفاً إلى الخارج .. وقد سلب مني موافقة
لم أكن أظن أنه يمكن أن يأخذها بهذه البساطة ..

وبدأ عادل يزورنا .. ويغمرني بفيض من الهدايا التي لا أحتاج إليها ،
وبدأ يتحدث عن دراسته في الخارج وعن أمريكا .. وعن جامعة هارفارد ،
وكان يتحدث ساعات طويلة .. ولا أجد أنا كلمة أقولها .. ولا شيئاً أريد
أن أسأل عنه ..

وفي يوم ظل يتحدث ويتحدث ثم توقف عن الكلام وسأل ..
— نجلاء .. أليس عندك ماتقولينه لى .. لماذا هذا الصمت المستمر ؟ .
— أبداً ..

— هل ضايقت حديثي عن أمريكا .. لنغير الموضوع ..
سكت لحظة ثم استطرد دون تفكير :

— ما رأيك في السينما .. ما رأيك في الأفلام المصرية ؟
— بعضها سخيف .. وبعضها لا بأس به ..

— من أحسن ممثلة .. هنا ؟

— فاتن ..

— أتعلمين أن تمثيل فاتن هنا يعتبر لا شيء في أمريكا ؟

— لماذا ؟ . إنها ممثلة تفهم طبيعة أدوارها تماماً كأي ممثلة أمريكية شهيرة

- لا .. لا .. لورأيت الاستديوهات هناك .. والممثلين الحقيقيين لأصابتك
الذهول.
- إن ما ينقصنا هي الإمكانيات وليس الفن .. عندنا فنانون ولكن الفقر
في الإمكانيات لا يظهر مواهبهم ..
- نعم .. هنا عندكم جهل وفقر ..
- عندنا ؟ وماذا عندك أنت .. هل تبرأت من مصريتك ؟
- أنا لا أخفي عنك أني أفكر بالفعل في السفر إلى أمريكا واصطحابك معي
للعيش هناك بعد الزواج .
- ومن قال لك إنى سأوافق ..
- ولماذا لا توافقين ؟ هذا بلد لا يقدر أبناءه ولا يضعهم في موضعهم
الصحيح .
- وما هو موضعك الصحيح ؟
- ها أنا مثلاً قد عدت من الخارج بعد سنوات دراسة .. ماذا يريدون أن
يعطوني كم رتب ؟ . ملايم .. تخيلي .. تعالى انظري إلى أمريكا ، إنهم
هناك يعطون الأساتذة ألوفاً من الدولارات ..
- لم يمض على حضورك سوى شهور وتكلم هذا الكلام .. لماذا لا تعتبر
مصر اليوم كأمریکا أمس عندما هبط عليها الرواد الأول .. لماذا لا تكون
رائداً ؟
- ما كل هذا الحماس ؟ لم أكن أعلم أنك وطنية ..
- هل كنت متحمسة .. ؟ ولكنه كان إحساسى الحق .. وأعتقد أيضاً أنه
إحساس أحمد لو عرض له نفس الأمر ..
- لماذا يقفز أحمد دائماً إلى عندما أشعر أنى على حق .. أو عندما أتلقت
حولى داخلياً باحثة عن سند يؤيدنى ؟ .

- إذا أردت أن تسميها وطنية فليكن .. وماذا عن وطنيتك أنت ؟
- ليس عندي وطنية .
- هكذا ببساطة ؟
- هكذا ببساطة .. ولنتته من هذه المناقشة السخيفة .. هيا نخرج ..
- لا أريد الخروج ..
- هيا .. هيا .. سنذهب إلى الأوبرج .. هناك نمرة جديدة ستعجبك ..
- لا أريد الخروج ..
- لماذا تعاندينى ؟
- أنا لم أعاندك .. أنا فقط لا أريد الخروج ..
- هذه معاندة .. الزوجة يجب أن تطيع زوجها .. هذا هو المفروض ..
- ولكنى لم أوافق بعد على أن تصبح زوجى ..
- موافقتك ليست مهمة .. لقد وافق أبوك وأمك .
- إذن تزوجهما ..
- أنت وقحة ..
- وأنت لاكرامة لك .
- ودخلت أمى على صوتنا الذى تعالى حتى وصل إلى حجرتها .. جاءت
تجربى .
- ماذا بكما يا أولاد .. ماذا حدث ؟
- أيعجبك أن تقول نجلاء إنى لاكرامة لى ؟
- ودون أن تسمع أمى بقية كلامه ودون أن تعطينى فرصة للرد صاحت فى :
- نجلاء كيف تقولين لخطيبك هذا الكلام ؟

— أولا هو ليس خطيبي .. ثم أنا لم أقل له هذا الكلام .. إلا بعد أن قال لي
إني وقحة ..
وبهت أُمى ..

— كيف تتكلمان بهذه الألفاظ .. نجلاء هل هذا يليق بك .. عادل هل هذا
كلام رجل لم يمض على حضوره من أمريكا إلا أشهر معدودات ؟
— أمريكا .. أمريكا .. أمريكا .. لم تصنع له شيئا .. عادل هو عادل الذى
أعرفه تمام المعرفة .. ربما زادته أمريكا أنانية على أنانيته ..
وجريت أصعد السلم إلى أعلى قبل أن أضعف .. وأجهش بالبكاء ..
وجاء أبى نائراً مهتاجاً ..

— نجلاء ما هذا الكلام الذى سمعته من والدتك ؟
— أى كلام ؟

— كيف تشتمين عادل ؟

— أنا لم أشتمه ..

— شتمته .. وأكثر من ذلك كنت قليلة الأدب ..

— أنا لم أكن قليلة الأدب ..

— وماذا تسمين البنت التى تقول لخطيبها اذهب فتزوج أبوى :: هل تقول
هذا الكلام بنت مهيبة ..

— . . .

— لماذا تصمتين ؟

وأطرق لحظة مفكراً ثم عاد يقول فى حيرة ..

— أنا أريد أن أفهم ما الذى يدور فى رأسك ..

إن ما يدور في رأسي ملكي .. ملكي ولاحق لأي مخلوق فيه .. حتى أبي
نفسه ..

وأسكرتني الفكرة وكدت أضحك من فرط السعادة .. حينما قال أبي
باستسلام فجأة ..

— لن أكرهك على هذا الزواج .. إذا كنت لا تريدينه .. لتكون هذه
مشيئتك ..

وعدت للعمل من جديد ..

دخلت المكتب وكانت نادية جالسة إلى مكتبها والنافذة نصف مفتوحة
والعمل دائر ككل يوم .. أحسست أنى أحب هذا المكان .. قامت نادية
واحتضنتنى بفرحة وقبلتنى وقالت بشوق ..

— نجلاء .. حمد الله على السلامة .. ماذا فعلت ؟

— رفضت .

— حقاً .. ؟ كيف ؟ أنا فى شوق شديد لأن أعرف التفاصيل ..

دق جرس التليفون فانشغلت نادية عنى وإن ظلت الفرحة تلمع فى عينيها
من أجلى ..

كانت نادية فرحة بانتصارى .. ونازعتنى رغبة شديدة فى أن أبوح لها
بحقيقة عواطفى ..

انتهت من حديثها التليفونى والتفتت إلى ..

— هه ..

— قولى لى ألم يأت أحمد إبراهيم إلى المكتب أثناء غيابى ؟

— أتى مرة وهو على موعد اليوم مع طاهر لأمر معلقة بينهما .. لماذا ؟

— لأنى مهتمة به .

- قالت بدهشة ..
- حقاً منذ متى ؟
- منذ أول يوم رأيته .
- ولم لم تقولى لى طوال تلك المدة .. ؟
- لم تأت مناسبة ثم إنه مجرد اهتمام ..
- ابتسمت وقالت :
- حقاً .. وما الذى يعجبك فيه .. شكله ليس وسيماً على الاطلاق .. ثم إن له آراء غريبة .
- وهل هذا هو الحب ؟
- لا .. ليس حباً ..
- وماذا يكون إذن ؟
- لا أدرى .. كيف أسميه ؟
- الآن أصدقك ..
- وماذا عنك أنت .. أما زال غراماً من طرف واحد ؟
- نعم ..
- وإلى متى ؟
- لست أدرى .. إننى حائرة .. به يروغ منى دائماً فلا أعرف كيف أمسك به إننى أنحول فى حضوره إلى طفلة تأتمر بإشارة من إصبعه .. آه لو عرفت ماذا يضمر لى فى قلبه ؟ .
- لماذا لا تفعلين شيئاً ؟
- ماذا أفعل ؟ . فى الحب لا نستطيع أن نفعل شيئاً بل نظل واقفين كالأطفال ننتظر ..

- هذا صحيح ..
- إنه لا يرانى وأنا أمامه كل يوم .. بل أنا جزء من مكتبه ..
- لقد قلتها .. إنه لا يراك لأنك أصبحت جزءاً من مكتبه ..
- أنا لا أفهمك ..
- ماذا تقولان كل يوم ؟ نفس الكلمات تقريباً .. أليس كذلك ؟ . صباح الخير كالعادة .. ثم من اتصل به تليفونياً ومن أخذت له موعداً معه .. ثم دخولك بالدوسيهات وبعد ذلك فى الثانية عشرة تدخلين ثانية لتذكرىه بتناول الدواء .. إن كل من بالمكتب يعرف حتى حسين الساعى ..
- وماذا يعرفون أيضاً ؟
- لا أدرى .. اسألى نفسك ..
- وبسرعة أدركت أنى أخطأت .. فقد نظرت إلى فى عدااء ..
- جلست صامته وبدأت هى تدريجياً تتغلب على شعورها وقد وجدت أنه عدااء غير منطقى فما ذنبى أنا إذا كان نبأ حبها قد ذاع فى المكتب ..
- دخل حسين الساعى إلى الحجرة فقطع خيط أفكارى وراح يتكلم كلاماً كثيراً لم أسمعته فقد كنت أفكر فى أحمد .
- انفرج الباب مرة أخرى ودخل طاهر بقامته الطويلة ووجهه الوسيم .. ورفعت نادية عينيهما تستجديان نظرة اهتمام ولكن عينيه ظللتا مطفأتين .
- قال طاهر دون أن ينظر إليها :
- هل جاء أحمد إبراهيم .. أو اتصل تليفونياً ؟
- ردت وهى تتسول نظرة :
- لا ..
- راح يتكلم فى حدة

— هذا الأحمق .. ماذا يظننى ؟ يعتقد أنى سرقته ؟ ماذا يظننى ؟ .
رفعت عيني إليه وصوبتهما بإصرار فى عينيه لأرى نظراته وهى تكذب ..
أبعد عينيه وراح يتكلم كلاماً كثيراً ..

التقطت أذنى منه كلمتى الأدب والفكر .. كان مرور هاتين الكلمتين
من بين شفثيه الكاذبتين يجردهما من معناهما الكبير .. فلم يكن وهو يتكلم
سوى تاجر ..

سمعت نقرأ على الباب .. ودخل أحمد إلى الحجرة وارتعش قلبى
بالفرحة وتشبثت عيناى لحظة بوجهه ثم انتقلت بسرعة إلى وجه طاهر ..
الذى انفرج فى سماحة كاذبة وترحاب مزيف .. شد على يد أحمد مسلماً ..
وخبط على ظهره فى ود وبدأ أحمد حائراً مرتبكاً .. فى عينيه كلمات كثيرة
غاضبة تريد أن تنفجر .. ولكنها تبخرت تماماً أمام ترحيب طاهر الحافل ..
وانسابت كلمات طاهر الرقطاء تلتف حول أحمد فى نعومة .. وكان
غريباً أن ينهزم ذكاء أحمد أمام هذا الحبث .. فتح طاهر باب حجراته
واختفى فيها هو وأحمد .. ومر الوقت ثقيلًا .. وازداد ثقلاً بعد أن خرجت
نادية لبعض الأعمال .

بعد قرون من الزمن خرج أحمد وقد ازدادت الحيرة على وجهه ..
تمنيت لو يتكلم .. لو يقول لى ما الذى دار بينه وبين طاهر ولكنه خطأ ناحيتى
فى ابتسام وبدأ كأنه نسى موضوع طاهر .. وقال :

— مبروك ..

— لماذا ؟

قال وعيناه تبحثان فى إصبعى ..

— سمعت أنك خطبت ..

- قلت والضيق يخنقنى :
- لقد رفضت .. ولكن كيف عرفت ؟
- من يهمّ بشخص يعلم عنه كل شئ :
- هو مهمّ بى إذن ؟ لقد انتقى الكلمة التى أحبها .. توقف الحديث وتكلمت
العينان .. قالتا همساً كثيراً فيه حب وحنان وعطف .
- عاد يقول :
- لم تخطبى إذن ؟
- لا ..
- إذن أستطيع مكالمتك فى التليفون ؟
- قلت فى فرح :
- سأنتظر مكالمتك ..
- ليكن فى الرابعة ..
- سلم ومضى .. وهدأت الزوابع فى داخلى .. وازدهر شئ فى قلبى ..

جلست فى الرابعة بجوار التليفون أنتظر مكالمه أحمد ..

أنا أحب هذا الوقت من النهار .. إنه ليل مضى .. استعار هدوءه من
هدأة الليل .. وسرق خدر النوم من سواده ..

أنا أعبد هذا الوقت .. فالكل ينام إلا أنا .. أنا التى أظل العقل الوحيد
اليقظ فى البيت .. حتى شجرة المشمش تبدو ناعسة فى حركة غصونها تراخ
وكسل .. وكأنها نائم يتقلب .. تسلت إلى صورة أحمد وكلماته ورحت أفكر
فى الفارق الاجتماعى الذى يفصل بيننا ..

أنا لم أحس ثرائى إلا من كلماته .. لقد ظللت طوال عمرى أنقبل هنا
الثراء وأعيش فيه كشىء طبيعى فى حياتى .. كلامه وجهى الثابتة .. وكيباض
بشرى الناصع ولكن ماذا يعنى الثراء عندى .. ؟ إنه لا يعنى أى شىء ..
أنا لا أشعر أنى أنتمى لطبقتى ..

أنا أشعر أنى غريبة فى بلدى .. يتيمة الأم والأب رغم وجودهما ..
أنا لا أملك ثرائى .. ولكنه مسموح لى فقط باستعماله .. أنا لا أملك سوى
روحى ..

دق جرس التليفون فاحتضته وأصقته بأذنى .. وجاءنى صوته حنوناً
ودوداً يسأل أن أشاركه الاستمتاع بترهه قصيرة ..

وخرجت معه .. ومشينا يدي في يده .. وكلماته تعانق كلماتي ..
وخطواتنا تتوافق .. وتؤلف بإيقاعها على أرض الطريق نغمة عذبة في أذني
التي تعودت وقع أرجلي وحدي في كل طرق حياتي ..

اصطبغت نوافذ البيوت بالاحمرار .. واخترق السماء سرب من العصافير
وامتلأت نفسي بالجمال ..

تكلم أحمد عن عمله .. وعن سياسة البلد التي لا تعجبه .. ألقى إليه
بنصف اهتمامي وسرق جمال الطبيعة النصف الآخر ..

انتبه أحمد .. إني أردد « لا » و « نعم » دون فهم .. قال بشيء من الحدة :
— نجلاء .. أنت لا تصغين إلى ..

— آسفة يا أحمد .. فأنا لا أحب السياسة .. ولكن ألا ترى معي كل هذا
الجمال ؟

— أراه .. ولكني أرى القبح أيضاً .. أرى الاستعمار والفقر والأحزاب
والفوضى والملك ..

— لماذا تشتم الملك ؟

— لأنه يسرق قوت الشعب هو وطبقة الأغنياء في البلد .

— كيف تقول هذا يا أحمد .. إن الأرض ملكهم ..

— أليس حراماً أن يمتلك إنسان ألف فدان ولا يمتلك إنسان آخر قوت يومه ؟ .

ثم انفجر فجأة : يجب طرد الملك .. يجب طرده ..

— ولكنك يا أحمد تتكلم عن أشياء لا يمكن تحقيقها ..

— بل ستحقق ..

— كيف ؟

— بإثارة الرأى العام .. بالكتابة .. بفضح الحقائق .. وكشف المؤامرات
التي تحاك لهذا الشعب المسكين ..
كان يتكلم فى حرارة وانفعال .. ماذا يقول لو عرف أننا نمتلك أرضاً
شاسعة .. بحيواناتها .. وبالتالى الذين يعيشون فوقها ؟ .

جاءت أختي وزوجها في زيارة قصيرة إلى مصر .. وكانت (نهى) قد تغيرت تغيراً كبيراً يكاد يصعب على أن أتعرف عليها .. كانت قد اكتسبت شيئاً أجنبياً بشكل ما في حركاتها وطريقة كلامها .. بل أكاد أقول في ملامح وجهها ..

وعندما رآني زوجها بعد تلك الغيبة الطويلة نظر إلى غير مصدق أن الفتاة الشابة التي تقف أمامه هي نفسها نونو الصغيرة كما كان يسميني أيام خطبته لأختي . نظر إلى بدهشة غبية وقال ..
- لقد كبرت فجأة وأصبحت عروساً ..
وأردف بمرح ..

- تعالى يجازي أيتها العروس الحلو ..

جلست بجواره وبدأ يحكي لي حكايات كثيرة مسلية عن حياته بالخارج واستغرقتني دعاياته لبعض الوقت ثم سأله :

- قل لي يا أونكل .. ألا نستطيع أن نخرج الإنجليز من مصر ؟

- لا .. لا نستطيع .. ولكن مالك أنت والسياسة ؟ . ألا تعجبك دعاياتي ؟ .

انتظري سأحكي لك حكاية أخرى وقعت لنا حينما كنا في فيينا . كانت نهى .. ولكنني أحسست أنني أنفصل عن جو الجلسة بسرعة .. وأقف أنفراج

بتجريد شديد على ذلك الرجل الذى بدا لى غريباً تماماً وكأنى لأعرفه .. لماذا
يصر على رواية دعايات ليس لها آخر ؟ . لماذا لا يريد أن يتكلم فى موضوع
جدى هل يظن أنى مازلت طفلة صغيرة ؟؟ .

نادتنى أختى لكى ترينى الهدايا التى أحضرتها معها من الخارج .. كانت
واقفة أمام حقيبة ضخمة مليئة بكل لون يخطر على بال .. أمسكت بثوب من
الصوف له زرقه بديعة تسرق النظر .. واحتجت بلهد حقيقى كى أنتزع عيني
من الغرق وسط تلك الزرقه الخطرة ..

– جميل هذا الثوب يا نهى .

– أيعجبك ؟

– جداً ..

– خذيه .. إنه هدية لك .. ولكن لا تهمليه فى الدولاب بعد أن تلبسيه
مرة واحدة .. وتذكرى أنه صوف إنجلىزى وتفصيل إنجلىزى .. كلاسيك ..
قلت وأنا أضعه على جسدى أمام المرأة وأرى كيف يتوافق مع لون بشرتى ..

– لن أهمله فقد أحببت لونه ..

– لم تقولى لى يا نجلاء ؟

– هه ..

– لماذا رفضت عادل .. ؟

– أنا لم أحب عادل أبداً .. بل أكاد أكرهه .. كم هو سخيـف ..

ضحكت نهى وقالت :

– معك حق .. إنه سخيـف تماماً كهشام ؟

– كهشام ؟ هشام أخى .. ؟

– أخفضي صوتك أتريدنيهم أن يسمعوك .. نعم هشام أخى .. لقد كانا
متشابهين فى كل شىء .. كلاهما مدلل .. ورأساهما مليئتان بالسخافات ..
والتفاهات ...

السخافات .. والتفاهات .. كنت أسمع كلامها وأنا شاردة..

– هل نسيت ؟ .

قلت فى حيرة :

– لا .. لم أنس ..

تحدث أحمد في موعده .. تسلل صوته إلى أذني فأشاع البهجة في قلبي

– أوحشتني ..

– وأنت أيضاً ..

– وأنا أيضاً ماذا ؟

– أوحشتني ..

– ولماذا تقولينها بهمس ؟

– أبداً ..

– كيف أبداً .. أنت تخجلين مني ؟

– أبداً يا أحمد ..

– بل تخجلين ..

– ..

– رأيت ؟

– ماذا رأيت ؟

– صمتك هذا دليل على خجلك ..

قلت بلوم :

– أحمد ..

— لا تغضبي .. والآن ماذا كنت أريد أن أقوله ..؟ لقد نسيت تماماً !
آه تذكرت .. لقد حدثت أُمى عنك كثيراً وهى تريد أن تراك مارأيك ..؟
— سيسعدنى ذلك .

— هل يناسبك بعد الظهر .. فى الخامسة ؟ .
— نعم .. إنه موعد مناسب فى مثل هذا اليوم الشديد البرودة ..
— ألا تحبين البرد ؟
— أنا لا أحب الشتاء ..

— لماذا ؟

— لأن اليوم قصير .. سريع .. مظلم .. وأنا أحب الضياء .. والظلام يقبض
قلبي .. ربما لأن « هشام » مات فى الشتاء .. فى ليلة مظلمة .
— لماذا لا تحاولين أن تغيرى نظرتك للأشياء .. أحياناً تبدو الأشياء جديدة
لمجرد النظر إليها من زاوية جديدة .. إن الاستسلام للتعود يقتل
أجمل مشاعرنا .

قلت وقد شعرت بشيء من التوافق مع الشتاء لأول مرة .

— أنا أحب حديثك يا أحمد .. إنه يصنع منى إنسانة حرة .

— كل ما أرجوه أن أراك سعيدة .

فى الخامسة تقابلنا ودخلنا إلى شارع هادئ مسقوف بأذرع الأشجار
ومفروش بالظلام وتتدلى من وسطه أشعة الشمس . أشار أحمد إلى منزل
فى آخر الشارع وقال فى صوت عميق :

— هذا بيتى

شعرت من دفء كلماته بإحساس البيت .. أرسلت نظرى إلى حيث أشار
ورأيت بيتاً قديماً ذا باب تستدير نهايته فى نصف دائرة محكمة .. ولشرفاته

درازين حديدى مقشور الدهان ونوافذه تبدو كعيون متعبة شبه مغلقة ..
وواجهة المنزل تبدو كوجه عجوز عريق يحمل كثيراً من الذكريات ..
وتلتف حول المنزل حديقة رفيعة .. صعدت الدرجات وخيل إلى أن تلك
الجدران البالية المقشورة الدهان تكلمنى بكلام كثير حميم .

أجلستنى أحمد فى المدخل وخطا هو إلى الداخل .. كان المكان شديد
الهدوء .. وأحسست أنى أنفصل تدريجياً عن زمانى ومكانى .. وكأنى ولدت
من جديد فى تلك اللحظة وذلك المكان .. وكأن المكان له توقيته الخاص به
غير التوقيت العام هنا هدوء ، وسحر ، وسلام . هنا طمأنينة . دخلت أمه
دون أن أسمع لخطواتها وقعاً .. كأنها كائن أثيرى . نظرت إليها .. الطيبة
الساذجة تجملها من رأسها إلى قدميها .. ويشيع منها بهاء البساطة .. سلمت
عليها بوجل .. وأخذت هى رأسى بحنان وقبلتها .. شعرت لأول مرة بالبنوة ..
وأحسست أنها أمى وأننى أنتمى إليها . نظرت إلى فى ابتسام تتعرف على
ملامح وجهى ، ورأيت نفس النظرة الحزينة بعينيها . عالم حزين يطل
من خلف غلاف دموع متجمدة . نفس الحزن الذى بعينى أحمد . ولكن
لا . هذا حزن مستسلم ، وأحمد حزنه نائر يشتعل بالتحدى .

قالت فى بساطة :

— مرحبا بك يا ابنتى .

أحسست من كلماتها البسيطة أنها تعرفنى من زمن وأن لى فى قلبها مكانة .
تلاشت الغربة المزمنة فى روحى لثوان .. وكان أحمد يخطو حولنا وفى
عينيها فرحة وهو ينظر إلى . قرأت أفكاره . إنه يتأملنى فى هذا الإطار الحديدى ..
إطار بيته ويسأل نفسه : هل أبدو لائقة فى هذا الإطار القديم ؟ .

ثم جلس إلى جوارنا وشمطنا حديث بسيط عن الجو .. وكان أحمد يبدو
مستمتعاً بوجودنا معاً .
وفي نهاية الزيارة عندما سلمت عليها لأنصرف تمنيت لو ضمتني إلى صدرها
الحنون وطوقتني بذراعيها .

كنت أجلس أنا وهو في كازينو خلوى على أطراف القاهرة ، وكانت الصحراء تمتد في صفرة لا نهائية حتى تلتقي بالأفق الوهمي البعيد ، والهرم تتناول درجاته إلى زرقة السماء الصافية ، والشمس ترسل دفثها في حنان على الكون كله ، وأنا وأحمد نبدو نقطتين تحت أقدام الهرم .

قال أحمد وهو يستنشق الهواء . لء رثيه :

- كم أحب هذا المكان . إنه هادئ .
- والشمس هنا رائعة وهي تحتضر عند الغروب لتموت موتها اليومي .
- ولكنها تبعث من جديد كل صباح . أليس كذلك ؟ . إن موتها يحتوى على ميلادها .
- إنها لا تموت .
- ليتنى أموت مثلها ، ويكون موتى ميلادى .
- أنتحب الحياة إلى هذه الدرجة ؟
- نعم وأحب أن أعيشها إلى الأبد .
- بكل آلامها ؟ بكل تلك الأخطاء والشرور .. ؟
- نعم .. لأنى أشعر أن فى قوة هائلة تستطيع لإصلاح الأخطاء والشرور وأحياناً ..

– وأحياناً ؟

- وأحياناً أشعر أنى ضعيف ، ضعيف جداً ، ولا حول لى ولا قوة .
– ومع ذلك أرغب فى الحياة .. فالحياة حلوة فى كل درجاتها .. حتى عذابها ..
أحب .. الحياة فيها جمال وروعة وسحر ..
– إن حبك للحياة يدهشنى .. فأنا لم أحب وجودى أبداً ..
– لماذا ؟

- لست أدرى .. كنت دائماً أحس أنى وحيدة فى عالم كله من الغرباء وأحياناً
أشعر أنى وجدت خطأ .. وأحياناً .. ينخيل إلى أنى عشت هذه الحياة من
قبل .. أليس هذا مملاً أن ترى كل جديد قديماً فى عينيك ؟
– أنت تحيريننى . فى هذه السن ، وتلك الثقافة ، وذلك الجمال ، وتكرهين
الحياة ؟ أنت تملكين مفاتيح عديدة تستطيعين أن تفتحي بها كنوز حياتك .
ويوم تملكين إرادتك وتقبلين على الدنيا فى ثقة وإيجابية ستكونين أسعد
امرأة فى الدنيا .

هل أحمد يفهمنى ؟ هل يفهم حقيقى ؟

أمسك بيدى وأهدتنى عيناه حباً وقال :

- أتمنى أن يجيء هذا اليوم قريباً .. يوم تقولين لى : يا أحمد ، الدنيا حلوة
وأنا أتشبث بوجودى فيها .

سكت أحمد وبدأ سعيداً هادئاً وخفتت لمعة التحدى فى عينيه .

- إن حديثى مع أحمد يساعدنى على رؤية نفسى من الداخل . لأنه يفتح لى
قلبه ويأخذنى إلى دنيا كلها حنان ، ويمنحنى فهماً وحباً كبيراً .

مرت أيام .. وأيام .. وأخذت زورق الحب وبعدت ، بل أوغلت في
 البعد عن عالمي .. وأصبح أحمد دنياي .. والمرأة التي أرى فيها جمالي والتي
 أتقبل فيها هذا الجمال وأفرح به .. وأصبحت أوجد من وجوده وأعيش فيه ..
 في حبه ، ولكن برغم أني أحببته وبرغم أني أحسست أنه يحبني .. إلا أننا لم
 نتصارح بهذا الحب .. وزاد هذا من عذوبة العاطفة النامية في قلوبنا وأعطي
 لها أبعاداً عميقة .. أصبحت أحب أحمد وكل ما له صلة به .. بالجريدة التي
 يعمل بها .. طريقته في الحديث .. صوته .. شكله .. بل لم أعد أرى في ملامح
 الناس المختلفة سوى ملامح أحمد .. وفي أصواتهم سوى صوته .. لقد طبعت
 عيني كل الناس بشبهه وطابعه ..

وجاء الصيف . جاء الصيف الذي أحبه .. وأصبحت السماء زرقاء زرقاء
 بيضاء .. وأنفقت الشمس الكريمة حرارتها ببذخ على الكون .. وبدا الأسفلت
 في الشارع يسيح .. ونما النهار وامتد داخل الليل وسرقه .. وأزهرت
 الأشجار على جوانب الطرق .. وأصبحت قممها تبدو على البعد متوهجة
 مشتعلة .. وبدا الناس أكثر حياة وأكثر مرحاً ..

تقابلت مع أحمد في المساء على ضفة النيل .. نظرت في عيني .. كانت
 عيناه مليئين بالتحدى .. غلب التحدى على مشاعر الحزن والقلق المقيمين

أبدأ في عينيه .

تكلمت أفتح موضوعاً لأبعد قدر إمكاني عن النار الخالية في نفسه والتي
تتظر كلمة لتشتعل ..

– سأطلب إجازة في الشهر القادم لأننا سنسافر ..
– إلى أين ؟

– إلى الإسكندرية .. ثم إلى جدى في العزة لبعض الوقت ولوأنى أفضل
الذهاب إلى العزة رأساً لأننى أحب الريف .. أحب رائحة عيدان الخطب
وأحب التوقيت البطيء الذى أدخل فى رحابه بدخول العزة .. هناك الشمس
أكبر والدنيا أوسع .. وهناك أستطيع ركوب الحصان « كونت » وأطير به
عبر الحقول .

نظر أحمد إلى وضحك ساخراً ..

– تتكلمين عن الريف كأنك إحدى السائحات .. كأنك لست مصرية ..
قلت بدهشة :

لماذا تتكلم هكذا يا أحمد ؟

قال وقد تسربت إلى نبراته مرارة :

– لأنك إقطاعية صغيرة .. تذهبن إلى العزة لترفهي عن نفسك بالتفرج
على عشرات الفلاحين وهم يعزقون الأرض . تنظرين من عليائك من
فوق الحصان إلى دود الأرض .. إلى الفلاحين وهم ينثرون الحبوب لتطرح
أموالاً ..

وملأ الغضب وجهه كله وسأل :

– ماذا قلت ؟ اسم الحصان كونت ؟؟ حتى الحصان اخترت له لقباً فرنسياً !
الألقاب المصرية لا تعجب حصانك فيما يبدو ..

قاطعته مدافعة عن نفسى :

— ولكنى لم أقل لى أراهم دوداً من دود الأرض . أحمد أنت تضع كلاماً على لسانى لم أقله ..

— تصرفاتك تقول بأفصح مما يقول لسانك .. طريقة كلامك .. نظراتك المتعالية .. كلماتك الفرنسية .. هل تعرفين معنى أن تكونى فلاحه ؟ معناها الجوع والفقر .. والمرض .. والطين حتى الركبتين .. معناها أن تتمزق كفاك وتشقق قدماك وتشوى الشمس بشرتك الريانة الطرية .. معناها ألا تعرفى الأمان أبداً .. أتريدين مثلاً لهذا الفلاح ؟ . هاهو أمامك .. أنا أحمد إبراهيم الفلاح ابن الفلاح .. أنا واحد من ألف فى قرى استطاع أن يتعلم إلى النهاية .. مادو العلم بالنسبة لك ؟ .. ترف . وغرور .. وحذقة . ودليل ثراء ووجاهة .. ولكن العلم بالنسبة لأمثالنا طوق نجاة .. ومرفأ أمان .. وحياة .. ماذا تفعلين بالخمسة عشر جنيها التى تأخذينها من عمالك ؟ . تشتريين بها حذاء جديداً لترميه بعد أن تلبسه مرة واحدة .. إنها أجر السائق الأسود الذى يزين به أبوك عربته .. لماذا لا يقود هو وأنت ؟ . لماذا تجلسين بجوار السائق ؟ . تنازلا وتواضعا .. أنا أمقت هذه الطريقة التى أنجيتك .

تخسر صوتك وسكت . محال أن يكون أحمد يعنى كل هذا الكلام . محال أن يكرهنى كل هذه الكراهية . قلت :

— أحمد ماذا يغضبك اليوم . قل لى ؟ انطقاً التحدى بعينه .. وظهرت الطيبة الحلوة فى ألوان نظراته العديدة ثم ارتسم الحزن فى أحلك درجات سواده .. وتكلم فى أسى .. قال :

- نجلاء .. لقد أغلقوا الجريدة ..
- قلت فى دهشة ..
- كيف .. لماذا ؟ ما السبب ؟
- أكل ...
- هاجم رئيس التحرير الملك فأغلقوها .. وصادروا الأعداد .. واعتقل
- رئيس التحرير .. وربما اعتقلونى أنا أيضاً ..
- صرخت :
- ماذا .. كيف .. أأست حرأ تكتب ما تشاء ؟
- قال فى سخرية :
- ألم أقل لك إنك سائحة ؟ .
- أحمد لا تسخر منى .. أحمد .. لا أحد يستطيع أن يعتقلك .. قل لى
- أن لا أحد يستطيع أن يمسك ..
- قال فى ابتسامة :
- حسناً .. لا أحد يستطيع أن يمسنى ..
- أحمد .. لا تكذب على ..
- أياهمك أمرى إلى هذا الحد .. ؟
- بالطبع ..
- وماذا عن المئات والألوف الذين فى السجون .. ألا يهملك أمرهم أيضاً ؟ .
- قلت فى حيرة :
- يهمنى ولكن ماذا بيدي ؟
- بيدك الكثير .. تستطيعين أن تثورى .. وأن ترفضى هذا الحكم .
- قلت فى حيرة أكثر :

— كيف ؟

— على الأقل بينك وبين نفسك .. إن عدم مبالاةك بما يجري حولك من أمور بلدك خطأ كبير بل جريمة حتى في حق نفسك .. وحق وطنك .. أن تقول أنت .. ويقول هو .. وتقول هي .. ويقول مائة وألف .. ومليون و٢٢ مليون هذا ليس شأني .. وما دخلي .. هنا الجريمة والمأساة .. إن الثورة هي أن يثور كل واحد .. وساعتها سوف يخرج الملك وسيخرج في أثره المستعمر ..

— أنت على حق يا أحمد .. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل وأنت تكرهني كل هذه الكراهية ؟ .

قال في هلع مفاجيء .

— أكرهك ؟ . هل قلت إنى أكرهك ؟ . وهل أستطيع ؟ . هل يمكن ؟ . نجلاء .. أنا أحبك (أمسك بيدي وأكمل) أنا لا أكرهك ولكنى أكره سنوات عذابى .. أكره طفولتى الشقية .. أكره طبقتك التى داستنا وداست على آمالنا .. ولكن ما ذنبك أنك من هذه الطبقة ؟ . لماذا يدفع قلبك النبيل ثمن خطايا لم يرتكبها ؟ . نجلاء .. أنت مظلومة مثلى ..

قلت وقد تحولت إلى رعشة حنان :

— وأنا أحبك .. ولكن لا تقل تلك الكلمة مرة أخرى .. لا تنطق بهذه اللفظة الفظيعة .. الكراهية .. انحنى أحمد على يدي وقبلها في وجد ..

في هودتى إلى الفيلا نبت في قلبي خوف من ثورة أحمد .. وكلماته المريرة مزقت حرير عواطفى .. لماذا تكلم أحمد بتلك المارارة ؟ . وكيف استطاع أن يكون بتلك القسوة ؟ . لقد أزعجتني قسوته .. زلزلت مشاعرى .. ولكن

صارحته بحبي أنا الأخرى بعدها ؟ . أنا لم أحس بالبحر إلا بعد مدة .. بعد
أن بدأ قلبي يتزف ألماً ..

دققت جرس الفيلا ففتح لي السفرجى الباب .. ودقت ساعة البهو في
تلك اللحظة .. وارتفعت ثرثرة « عبده » في أذني وشعرت بهذه الضجة
المنغومة تحملني إلى دنيا الأمان ..

— الست والبلك عند شريفة هانم لأنها وضعت ..

جاءني صوته كضباب كلمات ليس لها معنى حقيقي ..

صعدت إلى حجرتي .. إلى أصدقائي الأشياء .. ستايري المسدلة ومصباح
قراءتي ووسادتي .. واللوحة المعلقة فوق فراشي .. أصدقائي الأشياء ينظرون
إلى ويعلمون كم أنا حزينة حيرى في أمر أحمد ...

جلست على حافة الفراش وتحسست نعومة ملمسه .. واحتضني الأمان
وآنتني الوحدة ...

ذهبت مع أمى فى الصباح إلى شريفة فى المستشفى .. دخلنا إلى الحجرة البيضاء فى الجناح الكبير .. وفى الفراش الصغير كانت ترقد شريفة تعسة شاحبة . اقتربت من الفراش وانحنيت على وجنتيها ألثمتهما .. ويبدو أن قبلى هزت مشاعرها فانهمرت الدموع من عينيها وغمغمت تشكو إلى ..

— بنت يا نجلاء ... مرة أخرى بنت ..

ربت يدها أواسيها وأقول لها :

— كل ما يعطينا الله جميل ..

ولكنها استرسلت فى البكاء .. وراحت أمى تواسيها وتمنيها .. بمولود ذكر فى المرة التالية .. وخيم علينا الصمت .. كل واحدة سارحة مع أفكارها . شريفة تحلم بمولود ذكر .. وتشعر أنها مذنبية لأنها لم تنجب الوريث الذى كان ينتظره زوجها ليورثه ثروته .. وأمى سارحة فى أشياء بعيدة لا أعرفها .. وأنا حزينة من أجل المرأة فى بلدى .. أتساءل .. هل خلقنا نحن النساء من أجل أن نصبح أدوات تكاثر وتناسل .. نلد ونرضع .. ثم لا شىء بعدهذا؟ .

عند خروجى مع أمى من المستشفى خرق أذنى صوت ولدين يتصافعان بالشتائم .. وفى الثوانى القليلة التى استدار فيها مرغنى السائق بالعربة ليأتى

أمامنا .. أحصيت عشر شتائم .. كل من الولدين يحقرأم الآخر لأنها امرأة.
ما بال الرجل لا يحقر نفسه أيضاً ؟. أليس هو ذاته ابناً لامرأة ؟
شعرت بأني أتضائل وأن هذه الشتائم تدهشني .. وتلوسني أنا الأخرى ..

مر يوم وآخر ولم يتكلم أحمد .. لم يسأل عني لا في العمل .. ولا في ميعاد مكالمته اليومية في منزلي ..

طلبت في المنزل فلم أجده .. رد على رنين ساخر يضحك من عواطفى .. أين أحمد ؟ لماذا لم يتصل بي ؟ . ترى هل اعتقل ؟ . كيف لم أفكر بهذا من قبل ؟ . ولكن هل ممكن أن يعتقل ؟ . داهمني خوف شرير وعصر قلبي .. بقسوة سارعت أطلبه لأول مرة في الجريدة فلم أجده أيضاً .. انتظرت شهوراً من اثواني وسنين من الدقائق .. أن يتكلم هذا الصامت في الركن .. أن يصرخ ويملأ الغرفة برنينه انفرحان . أمسكت بالسماعة مرة أخرى و طلبته في أمل .. وفي تلك المرة سمعت صوته الحلو يرد على ..

صحت بلهفة ...

— أحمد أين أنت .. لماذا لم تتصل بي ؟

رد ببساطة ..

— كنت مشغولاً ..

— مشغولاً إلى درجة ألا تكلمني يومين ؟

— فقط كنت مشغولاً ..

— ولماذا هذا الضيق .. إذا كان يضايقك أن أسأل عنك فلن أسأل ..

— نجلاء لماذا يبدو صوتك مخنوقاً ؟

— ليس مخنوقاً ..

— ما بالك هل أنت غاضبة منى ؟

— نعم ..

— لماذا ؟

— لأنك أصبحت قاسياً ..

— أنا لست قاسياً .. قولى إنك لست غاضبة ..

— لست غاضبة ..

وأردفت وأنا أبتلع كبريائى :

— هل أستطيع أن أراك اليوم ؟ .

— نعم موعدنا فى الكازينو فى الخامسة ..

— إلى الخامسة إذن ..

وضعت السماءة .. ومسحت ييدى على وجهى فوجدته مبللاً بدموعى ..

إن مجرد كلمة قاسية من أحمد فجرت ينبوع الحزن من عيني .. ولم أشعر
أنى كنت أبكى طوال مكالمتى له .. لماذا لم يسأل عني يومين ولماذا لم يقل فيم
كان انشغاله ؟ . إنه لم يكلف نفسه مشقة انتحال عذر .. أى عذر .. لالن
أذهب إليه .. سأكلمه وأعتذر له عن عدم الذهاب .. لماذا تسرعت وطلبت
مقابلته ؟ لماذا فرضت نفسى عليه ؟ . ما أسخفنى ! .

اليوم الحياة تضجرتنى رغم وجود أحمد فيها .. ورغم محاولته إقناعى
أن الدنيا حلوة .. ظل الضجر يطاردنى وشعرت أنى معتقلة داخل نفسى ..
داخل صدرى وظهري ورأسمى وأطرافى .. عيناي نافذتان ضيقتان أنظر
منهما من سجن جسدى إلى العالم الخارجى ولكنى لا أستطيع أن أتجاوب معه ..

وكأني منفية داخل عذابى وجميعى وقد فقدت التجانس مع جميع الأشياء..
كنت فى حاجة إلى يد تخرجنى من داخلى .. أحمد كان يلوح بيده ولكنه
يعود فيسحبها ... ويتركنى أهوى وأغرق .. صوته يأتينى خافتاً بعيداً هو
الآخر ..

أنا وحيدة .. وحيدة .. والعالم أجمع والمجتمع والناس وأحمد يبعدون.
يبعدون ويوغلون فى البعد والغربة . لا أحد قادر على استصدار عفو عن روحى
لترجع فتحس أن جسدها هذا هو وطنها الصغير .. روحى مغربة منفصلة
انفصال تاماً عن جسدى .. الملل يغزوينى والتكرار يقتلنى .. إن مجرد تصورى
أنى سأعيش وأموت مثل هذه الشجرة الوحيدة فى الحديقة .. أسقط فى مكانى ..
وأنتهى نهاية خرساء .. هذا التصور يفزعنى .. لماذا لا أترك كل شىء وأسافر
إلى (نهر) فى إيطاليا ؟ . ربما وجدت نفسى فى المجهول .. لو أستطيع أن
ألغى ذاتى وأولد من جديد فى مكان آخر وزمان آخر ؟ . زمان آخر ..
زمان آخر .. ربما ولدت فى الزمان الخطأ .. إن كل شىء يبدو غير متجانس
روحى .. لماذا لا أسافر إذن .. وأترك أحمد وكل شىء ؟ .

ما هذه الأفكار ؟ . ما أنا إلا هاربة .. هاربة من بلدى .. من أهلى ..
من نفسى ومن حبيبى .. ولكنى لم أكلم أحمد ولم أعتذر له عن الموعد
بل غمرتني فرحة أخجلتني .. لأننى لم أعد أستطيع العيش بدونه .. إن مجرد
تخيلى دنياى بغيره مستحيل .. مستحيل ..

في الخامسة تماماً كنت هناك في الكازينو أنتظره .. اخترت منضدة على النيل مباشرة وجلست وأخذت أنظر إلى الكون وإلى تلك الثروة من المياه التي تتزدهر أمامي بين الضفتين .. جلست أفكر .. ليتني نقطة في هذا النهر العريق .. ليتني هذا الطائر الشريد الصغير الذي يقفز فوقه من ناحية إلى أخرى .. ليتني تلك السحابة المصبوغة بالاحمرار .. أو تلك النسمة المحملة بدفء الربيع .. ليتني هذا الضباب الزجاجي الشفاف . ذلك الرداء الذي يغلف النهر والصفاف وهامات العمارات والكون يبدو من خلاله سحرياً لماعاً غير حقيقي .

آه لو أتخلل إلى ذرات غير مرئية تحتوى على حرية الحركة ؟
 ها هو أحمد قد أتى أخيراً بعد نصف ساعة كاملة يعتذر كأنه لا يعتذر ويجلس وأنظر إليه ويتحدث إلى .. ويأتيني صوته عبر أذني كصوت غريب أسمعه لأول مرة ولا أأترف به .. أمسك بيدي لمس جسدي ولم يلمس روحي .. لم يهز أعماقي .. إنه هو الآخر بعيد اليوم عني وأنا أحس الضياع ..
 سقط الصمت بيننا وأقصى كلامنا داخل نفسه .. مددت صوتي بكلمة تصافح صوته وتبعد الغربة عن جلستنا ولكنه لم يرحب بها .. رداً مقتضباً مع وحدتي وراح في غيبوبة فكره ..

لماذا هو بعيد اليوم عني ؟ . ولماذا لا يتحدث ؟ . ولماذا خصام الصمت هذا ؟ . إن قسوته لا حدود لها .. لماذا لا يتكلم ؟ .

قال أخيراً :

— كيف حالك ؟

أنا أكره تلك الكلمة المهلهلة التي يستعملها الآلاف كل يوم.. ولكني أجبت بنفس الكلمة الممزقة :

— كيف حالك أنت ؟

ولم أستطع منع نفسي من أن أضيف ..

— هل يضايقك شيء يا أحمد ؟ .

— لا .. لماذا ؟

— فقط .. أنت لست كعادتك ..

— كنت متعباً .. مريضاً ..

قلت ولهفة تدفع بنفسها برغمي إلى صوني :

— مريض .. ؟ ماذا تشكو .. أنت لم تقل لي شيئاً ..

— لم يكن مرضاً حقيقياً .. لم يكن شيئاً ..

سكت وسكت وبدأ الضيق يترجم نفسه دموعاً تكون خلف عيني

لتفضحني باليكاء .. لالآن أقول له إنني قررت السفر غداً .. إنه يبدو على

أى حال غير مهم في .. ولن يهم بالتالي لسفري .. هل أقول له ؟ بالتأكيد

سيرد بصوت هادئ ليس فيه توتر الحب ولهفته .. ربما يرد هكذا — حقاً

سناقرين ؟ . مع السلامة .. لالآن أقول له شيئاً ..

قلت قبل أن تنسكب الدموع من عيني وتفضحني ..

— أحمد شريفة ابنة خالتي التي وضعت منذ يومين والجميع ينتظرونني

في المستشفى يجب أن أقوم الآن ..
قال كأنه صدقني ..

— حمداً لله على سلامتها ..

— شكراً ..

ومشيت أتعثر في تعاسي إلى الباب لأختني في سيارة أجرة تحملني إلى
البيت .. لماذا يبعد أحمد عني وتفارق يده يدي بلا مبالاة ؟ . لماذا تموت
أفراح الاهتمام بعينيه ؟ . ولماذا يقفل على روحه متاريس العزلة ؟ . لماذا
يترك يدي ممدودتين في استجداء ويصفع حناني ؟ . وأنا أتجمد وقدمي
تلتصقان بالأرض والسلاسل تحكم الرباط حولهما وتسد أبواب الخلاص في
وجهي .. وأموت يبطء .. يبطء ..

كل شيء يضجرفني .. الحياة .. الطبيعة .. لون الزرقة الباهت في السماء
والاستسلام في وجوه الناس .. والركود .. الركود في كل شيء ..
قضبان غير مرئية تحكم الرتاج حولي ..

حياة العمل تحولت إلى رتابة .. وأصبح الذهاب إلى العمل كل يوم
يرعيني . تقول لي نادية « صباح الخير » بنفس نبرة صوتها المعدنية .. وأرى
وجه حسين الساعى بنفس تعبيراته المسكينة .. حتى الضوضاء في المكتب
أصبحت إحدى ملامح كل يوم .. وكأنها من آثار أقدام دب يلف في
قفصه .. تخطو قدمه في كل مرة على آثار أقدامه السابقة ويظل يلف ..
ويلف .. وينسى أنه يلف ويعود يلفهن جديد .. حياة قديمة مسرفة في القدم ..
عجوز ..

وسافرت إلى المصيف دون أن أقول لأحمد .. مضت العربية تكتسح
الطريق تقربني من الإسكندرية وتبعدني عن القاهرة .. عن أحمد ..

في حجرتي الصغيرة بالفندق وقفت أنظر إلى أشياء .. التي سأعيش
معهما فترة الصيف ..

هربت بنفسى إلى الشاطئ وحاولت أن أتذكر طفولتى وملاعب صباى
على رمال الماضى .. ولثمت الشمس وجهى وأحالت رمال الشاطئ الناعمة
وقواقه المهشمة إلى طريق منثور بالفضة معبد بالآلاف من حبات الخرز المضيئة
الملونة .

تخللنى هواء البحر وتخلل ذكرياتى .. وتكسرت عشرات الأمواج
تصافح قدمى فطالما عرفتنى طفلة ألهو عند الشاطئ المتعرج ..
ثم عادت براقع السحب تظلل وجه الشمس ثم تلفه وتغرق به وراء الأفق
وانتهى مشهد الاحتضار اليومى للشمس .. وتذكرت من جديد كلمات
أحمد ومضيت راجعة من نفس الطريق ..

جاءت بنات عمى مع اليوم الجديد ليأخذننى معهن إلى الشاطئ .. فرح
أبى ورحبت أُمى ..

— أهلا بنات اسكندرية .. ألا نراكما إلا من السنة للسنة ؟

ردت سهير :

— لماذا لا تأتون فى الشتاء ياعمى .. إن الإسكندرية فى الشتاء بديعة ..

— وما حيلتنا فى الأعمال التى تشغلنا طوال الشتاء .. المهم ها هى نجلاء معكم ..

امرحوا معها .. ولكن أين ماجد .. ؟

— سيحضر بعد الظهر ..

— هيا يا نجلاء اذهبي مع بنات عمك .. متى تعودين ؟

قالت سلوى ..

— سنقضى اليوم فى الكابين ياعمى .. أرجو أن تسمح لنجلاء بقضائه معنا ..

قلت :

— سأعود فى المساء إذن ..

— هيا بنا ..

وأخذتنى إلى الشاطئ .. إلى البحر الذى أحبه .. إلى غموضه وثورته

وموجه .. وحركته .. وألوانه المتعددة .. والرحابة التى تمتد أمام بصرى

والتي لا يحدها إلا الأفق الوهمى البعيد .. وإلى صوته الذى لأمل سماعه ..

جلست سهير أمامي مريحة سعيدة بلا سبب وراحت تنتقد كل من يمر أمامها وتضحك منه .. وأبدت إعجابها بالبنطلون القاتم الذي أرتديه وقالت إنها ستشترى مثله في الغد .. وسألت نفسي .. كيف يمكنها أن تكون بمثل هذا المرح وتلك السعادة . أعتقد أنها لا تفكر تفكيراً جدياً في أى شيء على الإطلاق ..

— أهلاً نجلاء .. ما هي أخبارك ؟

— أهم أخباري أنني توظفت ..

— توظفت .. توظفت في ماذا ؟

مرت شلة .. من صديقات سهير وسلوى فقامتا تتكلمان معهن وقال ماجد :

— هل تحبين أن نتمشي قليلاً ؟

— لا مانع .. هل تأتين معنا يا سهير ؟

كانت مشغولة بمجموعة من الصور التقطت لها في البحر وعلى الشاطئ فلم تجب .

ومشيت أنا وماجد . كان الوقت قد أصبح بعد الظهر والشاطئ شبه خال من الناس .. خلعت الصندل وثبيت البنطلون إلى أعلى ومشيت في الماء .. ولامست الأمواج قدمي وتصاعدت رائحة البحر إلى أنفي وملأت نفسي بمتعة لا حد لها ورجع ماجد يتحدث عن العمل ..

— هل اشتغلت حقاً ؟

— نعم .. لماذا أنت مندهش ؟

— أنا مندهش فعلاً فلماذا تتعجب نفسك بالعمل والمادة متوفرة والحالة ميسورة ؟

— أنا لا آخذ من العمل الجانب المادى فقط .. إن تجربة العمل فى حد ذاتها تعمق شخصيتى .

— وهل تجربة العمل وحدها هى التى ستعطى لشخصيتك العمق ؟ أمامك الحياة مليئة بالتجارب وإذا طلبت من أهلك أى مبلغ فإنه لن يتردد فى إعطائه لك ..

— أطلب .. أنا لا أريد أن أطلب .. لقد كبرت .. وأنا أريد أن آخذ مقابل ما أعطى .. ماذا أعطى لوالدى مقابل ما آخذ منه ؟ بنوتى .. أنا لا أعطيه هذا مختارة .. لقد وجدت نفسى ابنته .. هذه علاقة تخلو من الحرية. إنى لا أجد حرية إلا فى الحب والصداقة .. فأنا لا أعطى حبى إلا للشخص الذى يعجبني فعلا .. ولا أعطى صداقتى إلا للشخص الذى أرى أنه يستحقها ، ثم فى الصداقة الحقيقية حرية لحدودها .. أتعلم ما الذى يجعلنى أتمسك بالعمل ؟

— ماذا ؟

— لأنى أحاول عن طريقه أن أجد مبرراً لوجودى ولكى أبعد عن تفكيرى أن الحياة سخافة كبيرة ..

— سخافة كبيرة ! . ماذا تقولين ؟ أنا أراها متعة كبيرة ..

— أنا لا أراها كذلك ..

— وكيف ترينها إذن ؟

— أنا ما زلت أبحث عن معنى لحياتى .. أتمنى أن أفهم الحياة وأجد لها سبباً ..

— لماذا توجعين رأسك الجميل بتلك الأسئلة الفلسفية ؟

ورفع إلى وجهه ونظر إلى بملء عينيه ..

كان ينظر إلى كفتاة حلوة فحسب .. ما أبعد الفارق بينه وبين أحمد ..

رجعت إلى الفندق متعبة حزينة .. مررت آخذ مفتاح حجرتي فأعطوني رسالة عرفت في الحال خط أحمد فوق الخطاب .. دسسته بسرعة في جيبي وتبخر تعبي كأنه كان وهماً .. تمهلتي في فض الخطاب .. واستعذبت انتظاري . ولكن ترى كيف عرف أحمد عنواني ؟ . لابد أنها نادية .. وكيف تجرأ وبعث به إلى .. إن تلك المرأة تعجبنى ..

دخلت إلى حجرتي وأقفلت الباب بالمفتاح وجلست على حافة الفراش وقرأت كلماته ..

« أيتها الهاربة مني .. ومن نفسك .. ومن القاهرة .. أين المفر ؟ لقد بدأ موج القلق يشف عن أعماقك ويكشف كل ما هو أصيل فيك .. والآن صارحني نفسك وقولي لها .. لماذا تقاومين حبي وتخفينه في قلبك ونهريين .. إن كبرياءك الكاذبة تعذبك .. فصارحني نفسك .. استعرضي عواطفك من جديد واعلني حقيقة واحدة هي أني أحبك » ..

أحمد إبراهيم

يقول إنني أقاوم حبي وأخفيه .. ومتى كان الحب يخفى ؟ . إنه في نظرات عيني ، في لمسات يدي .. في نبرات صوتي .. وفي همس باسمه .. كيف أستطيع الهرب منه وهو كل فكري .. وهو كل الناس حولي .. وكل أشيائي ؟ .

هو يتجسد فى الوسادة التى أحتضنها .. وفى الحائط الذى أنظر إليه .. يطل
على من كل زوايا البيت والشارع .. ينبض مع الدم فى قلبى ..
هذا القلب أصبح منطقة نفوذ تابعة له تتلقى أوامرها منه .. من مالكتها ..
انقسمت فى داخل إلى اثنين متصارعين يكره الواحد الآخر .. ويحبه ويعبده.
أنا وهو ..

قمت إلى المرأة لأثبت لنفسى أنى شخص واحد ولست شخصين .
إن بينى وبين أحمد صراعاً طبقياً . إنه لا ينسى أنى من طبقة السادة الذين
امتلكوا كل شىء وأنه عاش معدماً .. ولكن ما ذنبى ؟ . لماذا يتقاضى منى
عذاب السنوات التى عاشها ؟ . وعادنى حنينى الجارف إليه بعد أن صفيت
حسابى مع نفسى ومعه .. عادنى حبنى له كأقوى ما كان ..
— إن الحب هو الشىء الوحيد بلا منطق .. إنى أحبه لأنى أحبه .. إن قلبى
يحبه وعقلى يعبده ويرفض مجرد التفكير فى شخص آخر ..
إن حبنى يفرض التوحيد على قلبى ويأبى الإشتراك ..
كيف احتملت هذا البعد .. وفيم كان غضبى منه ؟ . إن غضبى يبدو
شيئاً بعيداً كأنه لم يكن .. لقد عاد فأصبح كل شىء .. مرآة وجودى .. ومحور
إبصارى وسبب جمالى ..

وأصبحت أيامى انتظاراً .. انتظاراً ليوم رجوعى إلى القاهرة .. إلى أحمد
جلوسى مع الآخرين أصبح صمتاً ، ونظراتى أصبحت تتخللهم لتفرق فى
التفكير فيه .. وغمرنى إحساس قوى بأنى أريد أن أبقى وحيدة .. فقط مع
خياله .. إن شخوص صورته أمامى ومثول خياله يحقق لى هدوءاً داخلياً
واطمئناناً وسكينة .. لدرجة أكاد أغفو معها من كثرة الهدوء .. أريد أن
أسدل جفونى على رسمه وأبقى هكذا إلى الأبد .. كلماته الصريحة البسيطة

يلوكها تفكيرى كالحلوى .. ويحفظها قلبى كأبيات من الشعر المتحرر الذى
كسر كل القيود ..

وأخيراً وبعد طول انتظار رجعت إلى القاهرة وإلى حجرى .. إلى
فراشى وستائرى ومرأتى ، إلى أحمد ..
تقابلت معه عند الكازينو ووجدته واقفاً أمام الباب سأله ..
— ألن ندخل ؟ .

— لا تعالى نذهب إلى مكان آخر ..
ركبنا سيارة أجرة .. أمسك أحمد بيدي .. وظللت أنظر إليه .. كنت
لا أريد أن أضيع لحظة واحدة فى النظر إلى شىء آخر سواه .. اشتبكت عينانا
فى عناق حنون ورفع هويدي إلى شفثيه يترجم حبه إلى ثمات .. وجرت بنا
العربة فرحة بلقائنا ..

وفى الصحراء وقفنا .. أحمد وأنا .. أخذ رأسى بين يديه وراح يتعشق
عينى .. اقترب ببطء بوجهه منى ولأول مرة منذ حبنا قبلى .. بدأ بلشمة
خفيفة على الوجنتين ثم زحفت شفثاه تحتضنان شفثى وهمستا بكلمة الحب .
— كيف تركتك تبعدين عني ؟ . لن أتركك بعد الآن .. أنا لا أستطيع أن
مرة أخرى ..

— أحمد لا تركنى ..
— لن أتركك تذهبين .. أنت حبيبى .. أنت أنا ..
همست بهيام ..
— حبيبى .. حبيبى ..

تهت بين الأحضان الحنونة .. ونسيت للحظة أنى تركت له جسدى يعنصره
ونسى عقلى لوهلة أن ما فعلته ذنب .. استسلم هو الآخر لفيض الحنان من

الآثام والضمائم المشتاقة .. ولفنى أحمد بين ذراعيه .. وأراح رأسى على صدره وبدأ عقلى يفيق من دوار الحب .. وبدأ يحسب أخطائى .. وداهمنى شعور بالذنب فشوه سعادتى وأثر لها من عليائها ..

غمرنى أحمد بنظرات تحتوى على عواطف عديدة متداخلة ملتوية .. من حب رجل .. وحنان أب .. وعناد طفل .. ويزاوج بين هذه العواطف عذاب دائم .

إنه يتعذب حتى وهو سعيد .. إن العذاب الحزين لون يدخل تركيبه فى كل ألوان عواطفه المختلفة فيصبغها .. يصبغ الإحساسات المضيفة بالظلال .. وأحياناً بالسواد .. وقفنا ينظر كل منا فى عيني الآخر ونقرأ أعماقنا .. همس أحمد :

— نجلاء لماذا يشوب نظراتك قلق .. أنتجلى من عواطفك ؟
همست أعترف :

— نعم إن الشعور بالذنب يشوش على لحظات حبي .. ويسقطنى من حالق سعادتى إلى حضيض التعاسة ..
قال بدهشة :

— نجلاء أنت تستمددين احترامك منى وأنا أحترمك وأضعك فى أعلى ما عندى أضعك فى قلبى وعقلى وأبخل بك على نفسى .. حبيبى لا تنجلى منى ، أنا أحبك ..

— أنت تحترمنى ولكنى أنا فى داخلى شخص آخر لا يحترمنى .. شخص بعذبنى ويلهينى بسياط الاتهام .. أنا أحترق من الداخل ..

— مازلت حائرة يا حبيبى .. إن الشخص الذى يثق بذاته يضع لها دستوراً يخطو على هديه وأحكامه .. فلا يعود مهزوزاً .. ولا يقف أمام نفسه

موقف الاتهام ..

- نعم مازلت حائرة يا أحمد ..
- يجب أن تتخلصى من تلك الحيرة ..
- أنا أحاول ولكن هل سأستطيع ؟
- لو كانت عندك شجاعة .. أتذكرين قصص الشجعان التي كانت تحكى لنا في طفولتنا ؟ إن الشجاع لا يصل إلى الكثر إلا بعد مصاعب جمة ..
- وطرق عديدة يصارع في أثناءها وحوشاً عديدة .. الوحوش المادية التي تصورها تلك القصص ليست في الحقيقة سوى وحوش داخل أنفسنا والكثير هو رمز وجائزة للانتصار على النفس وسيطرة على عنائها .. ولا شيء بلا مقابل . لكى تشترى يجب أن تدفعى مقابل ما اشتريته نقوداً .. ومقابل أن تجدى شخصيتك يجب أن تدفعى تجارب وضريبة تحمل مسئولية الخطأ والصواب .. مشكلتك عدم ثقة بنفسك .. وعدم تحمل للمسئولية ..
- لا شيء بلا مقابل هذه دعوة مادية يا أحمد ..
- نعم .. أنا مادية .. لماذا تنظرين إلى هذه النظرة ؟. أنا أكبر وأكثر تجارب منك .. إنك تحبين فى أولى تجاربك ..
- إن كلماته تقص أجنحة خيالى وتعوقنى عن التحليق ..
- قرأ فى تقطية وجهى تفكيراً عميقاً .. قال يداعبنى :
- لماذا هذه الهموم على وجهك الجميل ؟ .
- أنا أحاول .. أحاول أن أفهمك ..
- أسدل الظلام أستاره .. طلبت من أحمد الرجوع إلى البيت ..
- ابتداء من الغد أعود إلى حياة الملل والرتابة والتكرار والحلقة المفرغة ..

في المساء كلمتني شريفة . كان بصوتها شوق كبير وأبدت رغبته في أن تراني سألتها عن مولودتها فعاتبتني لأنني لا أزورها .

وأمام مهد الصغيرة وقفت أتأمل تلك الكتلة الغريبة من الحياة .. كيف لا تكون هذه المولودة اللطيفة مبعث بهجة وحب بين قلبي شريفة وزوجها ؟ .

سألت شريفة ..

— أكنت تفضلين أن تكون مها ولداً يا شريفة ؟

ترأت لي حيرة في عينيها وأجابت :

— كنت أتمنى قبل أن أراها لو كانت ولداً .. ولكني الآن متمسكة بها ..

— ولماذا تمنيتها ولداً .. ؟

— إن الولد شيء آخر .. إنه رجل .. إنه رب البيت .. وهو كل شيء ..

شريفة تردد ردوداً قاطعة تحيرني .. وتساءلت مرة أخرى ما الذي يميز الرجل ويعطى له كل تلك القوة والسيادة ؟ . وما الذي يجعل له الكلمة العليا والمقدرة على إسعاد أو إتعاس المرأة التي تحيا معه ؟ . إلا أنه السيد الذي ينفق على المنزل ؟ أ يكون مجرد تفوقه المادي مبعث تلك السيادة ؟ . أم هو تركيبه الجثامي ودوره الإيجابي في علاقته بالمرأة ؟ . ولكن ما أتفه تلك الفكرة أيضاً .. ماذا إذن ؟ . وكيف ظلت المرأة عمر البشرية بعض متاع الرجل وتابعا له مع أنها مانحة الحياة وهي أم البشر جميعاً ؟ . كيف لم تشفع لها الآلام الساحقة التي تحتاج جسدها وهي على وشك إهداء الإنسانية طفلا جديداً .. في أن يكون الرجل عطوفاً بها حنوناً ؟

ولكن مع ذلك فأول سؤال يلقيه الرجل .. ذكر أم أنثى ؟ .. لماذا ألوم

الرجل ؟ . ولماذا لا أسأل تقسى كيف قبلت المرأة أن تكون بعض متاع الرجل ؟ ولماذا رضيت أن تكون تابعا له ؟

مرة أخرى لماذا لم تنبع من النساء عبقریات كما نبغ من الرجال ؟ . لماذا سوى قلة من النساء المتفوقات ؟ . ما السبب ؟ ما السبب .. ؟ نظرت إلى شريفة وهي ترضع طفلتها وقلت لها ..

— يجب أن تبدئي « رجيا » قاسياً .. لقد ازداد وزنك إلى الضعف .. ابتسمت شريفة بحنان إلى طفلتها وقالت :

— كل شيء فداء (مها) ..

— وأضافت وهي تقبل اليد الصغيرة المتعلقة بثديها ..

— لقد أراد بهاء ألا أرضعها حتى أستعيد رشاقتي سريعاً .. ولكني متمسكة بإرضاعها . إنه شعور ممتع أن أحس أنها تنمو عن طريق ثديي المليء بالابن .. قلت وقد انتقل إلى حنان الأمومة الموجود في كل أنثى .. هذا شعور بديع يا شريفة ولكن ألا يهلك على الإطلاق أن تضغى سنتين كاملتين من شبابتك .. سنة في حملها وسنة أخرى في إرضاعها واستعادة رشاقة جسدك ؟

أجابت شريفة بيقين ودون تردد :

— لقد خلقت لأكون أما .. وهذا يكفيني ..

لقد أجابت شريفة على سؤال الحائر .. إن المرأة تكتفي بدورها كام .. كأنه حياة .. ولا يهمها أن تضغى سنوات عمرها في إنجاب الأطفال .. وأن تضغى حياتها بلا عمل ..

إن لحظة رؤية مولود جديد يتضاءل أمامها أي عمل ..

ولكن أنا .. هل أكون مثل شريفة .. مجرد أم تحبل وتلد وتكتفي بأن

نمنح الأجيال أطفالاً ؟ .. لا مستحيل .. أنا أريد أن أعمل .. لا غنى للشخص
الذى يحترم نفسه عن العمل .. ليس عملاً روتينياً لا إبداع فيه .. وإنما عملاً
بناءً خلاقاً أحبه وأضيف به جديداً من نفس كل يوم .. لماذا تركت الرسم ؟ ..
لأنه طريقى الصحيح .. كيف تركته واخترت وظيفة روتينية ؟ .. إن طريقى
الصحيح فى الرسم فى التعبير ، فى محاولة إيصال ما أفكر فيه إلى الآخرين ..
من الغد سأقدم استقالتي .. وسأذهب بأوراقى إلى كلية الفنون الجميلة ..
سألتحق بها لأبدع فناً ..

كم أحببت شريفة .. فهنا فى بيتها وعن طريق مولودتها وجدت طريقى
بعد طول ضياع وحيرة .. واكتشفت أنى أختلف عن معظم النساء .. لست
مجرد أنوثة تبحث عن رجل وطفل وبيت تستظل تحته .. وإنما أنا إنسانة لى
فرديتى وكبريائى .. ولاهنا لى فى هذه الدنيا إلا إذا حققت ما يبرر وجودى ..

كلمت أحمد وطلبت مقابلته .. كنت أقاوم حبه فى قلبى لأنى كنت
أخاف أن أكون ملتصقة به التصاق السابق بأخى . ولكنى الآن لا أخاف
شيئاً .. لقد وجدت طريقى ..

إن داخل كل منا ضعفاً يلقي بنا فى الحب ليدوب كل منا فى الآخر ويفقد
فرديته .. وقد تخلصت أنا من ضعفى وبدأت أسترد نفسى .. وبقي أن يتخلص
أحمد من عدائه الطبقي لى .. فى طريقى إليه لم يعاودنى الشعور بالذنب ..
أنا لا أصنع خطأ .. إن من حقى أن يكون لى صديق مادمت أعرف حدود
حريمى فأنا الآن كائن حر مستقل .. ولكن ترى هل يحترم أحمد المرأة
احتراماً حقيقياً ، وهل استطاع حقاً أن يتخلص من ريفيته ؟ .. لم تعطى
نصرفات أحمد طوال معرفتى به جواباً صريحاً على سؤالى ..

كان لقاء فاتراً .. ولاحظ أحمد أن مشاعري قد تغيرت .. وسررت
سروراً خبيثاً لهذه الملاحظة ..

لاشك في أني تغيرت كثيراً .. فقد بدأت أستر دنفسي التي ضيعتها بين ذراعيه .
بدأت أشعر لأول مرة أننا شخصان اثنان .. جسدان وروحان .. ولسنا
جسداً واحداً وروحاً واحدة ..

رجعت إلى الفيلا وفي قلبي حب لكل شيء .. للسماء الرحبة .. للأرض
الواسعة ، وللطرق العديدة التي فتحت أمام بصري .. تلاشي الضباب الذي
كان يحجب عن عيني الرؤية وشعرت أني أرى لآفاق بعيدة ..

كان التغيير الذي يحدث بداخلي أشبه بجنين على وشك الميلاد ..
وكانت مشاعري مزيجاً من القلق والرغبة .. والفرحة بالحرية التي عادت إلى
في نزولي الدرجات وأنا خارجة لزيارة نادية .. خرق أذني وأنا أعبر
البهو حديث تليفوني بين أبي وأحد أصدقائه ..

— نعم أوقفوا الجريدة .. واعتقلوا رئيس التحرير .. وكذلك المحررين السياسيين
معه .. هذا حسن .. يجب أن يذوقوا السجن ليتعلموا الأدب .. هؤلاء
قوم لا يتعلمون إلا بالضرب .. نعم يا أخي كل المحررين سمير عبدالوهاب
وأحمد إبراهيم ..

وقفت مذهولة أكذب أذني وأتهمها بالصمم .. بل لقد خيل إلى أني
أصبت بالصمم فعلاً .. وخرق أذني صفير يشوش على بقية كلامه .. أخذت
إلى شفتيه وهما تنفرجان وتنطبقان دون أن أسمع كلماته أو أفهم ما يقول
بعد ذلك .. جريت أهبط إلى الحديقة وأخذت العربة إلى نادية ..

صعدت إليها بعينين زائغتين وعقل مشوش .. صاحت عند رؤيتي ..

— ماذا بك يا نجلاء .. ماذا جرى ؟

أخذتني وأدخلتني إلى حجرتها الخاصة .. وهناك ارتيمت على القراش
أبكى بحرقه ..

قالت نادية في هلع :

— ماذا جرى .. ماذا حدث ؟

صرخت فيها :

— نادية لقد اعتقل أحمد ..

— اعتقل كيف عرفت ..

— من أبى .. نادية ، سيضربونه يا نادية .. سيجلدونه .. لقد تعذب أحمد
طوال حياته وليس به قوة على تحمل المزيد .. إنه مريض لن يحتمل ..
أنا خائفة .. خائفة ..

— لا تركي نفسك لهذه الأوهام .. ولكن هل أنت متأكدة ؟

— كيف يلبس على اسمه .. وهل أسمع من كل الأسماء .سوى اسمه ..
نعم هو أحمد لإبراهيم المحرر السياسى ..

— غدا يخرج يا نجلاء لن يحجزوه سوى يومين أو على الأكثر ثلاثة أيام ..
— إنه لن يحتمل سجن يوم واحد ..

ظلمت عند نادية وقتاً طويلاً أبكى .. وأخيراً استجمعت نفسي وتركتها
إلى متري وهناك خيل إلى أنى أهذى وأن هذا الواقع الذى أعيشه غير حقيقى
ولا يمكن أن يكون حقيقياً فكيف يمكن أن يكون أحمد سجيناً وأنا هنا جالسة
في حجرتي مثلى فى أى يوم من أيامى العادية .. ماذا بيدي ؟ .. ماذا يمكن
أن أفعله من أجل أحمد ؟ لا شئ .. لا شئ سوى إحساس سلبى بالكراهية
والحقده والثورة على نظام سياسى فاسد وملك ظالم ..

مرت ثلاثة أيام كاملة بلا نوم ولا أكل ولا حياة ..

فى اليوم الرابع وفى الرابعة سمعت الرنين بجوار فراشى فى الميعاد المعتاد
هل يمكن أن يكون أحمد ؟ . غير معقول .. ولكن رغم بأسى كان هناك
أمل ينمو فى قلبى .. مددت يدى إلى التليفون وقلت ..
- آلو ..

جاءنى صوت أحمد :

- نجلاء ..

لم أصدق أذنى .. غير معقول أن يكون صوته .. لماذا تدس على أذنى
الأصوات ؟ . جاءنى الصوت مرة أخرى :
نجلاء هل تسمعينى ؟
صرخت ..

- أحمد غير معقول .. قل إنك أحمد ..

- أنا أحمد يا نجلاء .. حبيبى أنا بخير ..

بخير .. يا لها من كلمة عذبة .. أحمد بخير .. حبيبى بخير وهو على الطرف
الآخر بكلمنى ..

- أوحشتنى يا نجلاء .. ولكنى لن أستطيع أن أراك .. لأنى مراقب ..

- هذا شىء لا يهمنى .. سأراك فى الخامسة فى الكازينو ..

- نجلاء .. أنت لا تفهمينى .. هل سمعت ما أقوله ؟ . أنا مراقب ..

- سمعت يا أحمد .. ولكننى سأراك فى موعدنا ..

وضعت السماعة .. وقمت أرتدى ثيابى .. إن حبيبى بخير .. أنا أعرف
لأول مرة معنى السعادة ..

قبل موعدى كنت هناك أمام الكازينو ، رأيت أحمد واقفاً أيضاً قبل
قبل الميعاد . خطوات إليه بسرعة .. أمسك يدى وقبلنى بعينه .. وسأل

وهو يضغط ضغطاً قوياً على يدي :

- لماذا أتيت ؟

- لأنني أحبك ..

- هذا خطر عليك ارجعي ..

واحتضنت ذراعه بذراعي .. وفتحت صدري للنسيم أستنشقه بلذة :

ومر شهر .. وعاد أحمد للكتابة من جديد .. قال بصوت ساخر ..
 — لقد غفروا لي دفاعاً عن الحق وسمحوا لي بالكتابة ..
 وكان بصوته مرارة .. كان يبدو أن السجن قد زاده صلابة وإصراراً ..
 وأحببت فيه هذا التحدي ..

- دق جرس التليفون وتسلسل إلى أذنى صوت نسائي لا أعرفه ..
- آلو .. نجلاء هانم ..
- نعم .. أنا نجلاء ..
- لقد كلفنى أحمد أن أتصل بك لأخبرك أنه فى المستشفى ..
- فى المستشفى .. لماذا ؟
- هو بخير .. ولكنه فى حاجة لفحص كامل ..
- قلت بسرعة :
- سأكون عنده بعد دقائق ..

وضعت سماعة التليفون .. وجريت إلى الدولاب فشددت حقيية يد ..

غيرت شبشبى بمخداه وجريت أهبط الدرجات .. ماذا بأحمد ؟ ..

أخذت تاكسى وأسرعت إلى المستشفى .. ووجدت أحمد راقداً

حجرة بيضاء بلا لون ممدوداً فى فراش صغير وسط البياض .. شاحب

حزين .. فى عينيه استسلام وخضوع وقد انطفأ بريق التحدى من نظراته ..

كرهت اللالون لأنه ترادف بسرعة فى ذهنى مع معنى المرض والاستسلام ..

أنا لا أحب أحمد خاضعاً .. أنا أحبه قائداً شاهر السلاح فى وجه كل عدوان ..

خطوت إليه ومددت له يدي .. ولم أستطع الكلام .. توقف لسانى ..

وتكلمت عيناى بدموع الحب .. فلم أستطع من الخوف عليه سوى أن أبكى ..

قبلتني عيناه .. وعانقت رموشه خدائى وطوقت أنفاسه وجهى فبعثت الدفء إلى قلبي .. ولكنه تكلم بياس عجيب ..
- نجلاء يجب أن نواجه الحقيقة .. أنا مريض .. ومرضى لا شفاء منه ..
- كيف ؟

- هناك عملية جراحية ولكنى لن أترك أحداً يشق جسدى ويعبث به ..
أكمل بياس أكثر :

- هناك قدر أقوى من إرادتنا ومن حبنا للحياة ..
- مستحيل .. مستحيل ..

- نعم .. يا نجلاء .. إنها الحقيقة .. سأظل مريضاً يسحب منى المرض صحتى يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر حتى أصبح هيكلاً لا يتحمل لفح الهواء ثم أموت .. وأفارق معشوقتى الخالدة .. الحياة ..

تخسرج صوته فأدار وجهه ودمعت عيناه .. احتويت وجهه بين كفى وقلبي يتمزق حزناً ..

أجهشت بالبكاء أنا الأخرى واستسلم أحمد لضماق ودس رأسه فى صدرى كأنه طفل صغير يبحث عن أمان ..

سمعت من صدرى همساته .. كان قلبه يوشوش لى .. حبيبتى .. امنحني حنانك .. ولكن ما أقل ما أعطيت وأكثر ما أخذت من ذلك الفيض الغنى من حنانه هو .. كنا فى قمة عالية من التعاطف حينما سمعته يتكلم بمثل ما فكرت فيه عن الخوف .

- هل حدثتكَ عن الخوف يا نجلاء ؟ . لقد صاحبنى منذ طفولتى .. وبعث

الشك والتوجس والريبة إلى قاي .. وأحال كل الأشياء وكل الناس حولي إلى غيلان، دائماً كنت أشعر أنني بلا مأوى لأن بيتنا الطيني كثيراً ما تهدم من أثر المطر .. كنت أخاف من الجنيات والعفاريت .. وكنت أهرول فرعاً حينما أتأخر في الحقول إلى ما بعد الغروب .. وعندما دخلت المدرسة كنت أخاف عصا المدرس .. ثم أصبح خوفي الأكبر أن أحرم من التعليم .. وحينما اكتشفت المرض الحبيث الذي يكمن في جسدي سيطر على خوف الموت .. والفناء ..

- ولكن يا حبيبي لماذا لا تجرى العملية .. ؟
- الطب .. طفل صغير مازال يثق أبواب المجهول .. هناك أمراض كثيرة لم يجد لها الطب حلاً ..
- لماذا تتكلم بهذه النغمة اليائسة .. أنت تمزق قلبي .. ليتني كنت المريضة بذلك ..
- لا تقولي هذا .. ليس من حقك أن تقولي هذا ..
- ولكن لماذا تمرض أنت بالذات .. أنت الذي تعطي الدنيا فنا وتقود عقول الناس إلى التفكير ؟ .
- أنت أعطيتني ما هو أجمل من الفن .. لقد أضأت لي الطريق لأتعرف على نفسي .. كما أضأت لك الطريق لتعرف نفسك ..
- أنت أيضاً .. كلانا كان نقطة بد بالنسبة للآخر .. لقد بدأنا نعيش ونتذوق الحياة منذ عرف كل منا الآخر .. يا حبيبي .. أنت حياتي ..
- راح أحمد يربت على شعري ويطمئنتني .. ويسري غنى .. هو يفعل ما يجب أن أفعله أنا ..
- قلت :

- ليتنى بمثل قوتك يا أحمد ..
- روحى قوية .. ولكن مادنى ضعيفة .. أنت تستطيعين أن تكونى قوية أيضاً ..
- أنت إرادتى .. إنى أدين لك بكل شىء ..
- لا دين لأحد على أحد .. إنه ديننا نحن الاثناء على الحب ..
- نظر إلى ساعته وقال ..
- يجب أن تذهبي الآن حتى لا تتأخرى ..
- لا أريد أن أذهب ، إن مكانى هنا بجانبك ..
- بل ستذهبين الآن ..
- سأحضر فى الصباح إذن ..
- وعملك ؟
- هل نسيت ؟ .. لقد تركته ..
- وماذا قال أبواك ؟
- فضلاً دراستى على العمل ..
- انحنيت فقبلت وجنته .. واحتوى هو وجهى لحظة ونظر فى عيني وقبلهما .
- تركته ومضيت إلى بيتى وأنا حزينة غضبى من الحياة .. لماذا نتعذب فى هذه
- الدنيا .. ولماذا نولد لنمرض ونمرض ونموت ؟ . أهى نكته سخيفة .. أم أن
- هناك حكمة وراء كل هذا ؟ . وما هى تلك الحكمة ؟ .
- لم أستطع النوم .. جلست أفكر هل يمكن أن يموت أحمد حقاً ؟ وهل
- يمكن أن يرحل هو الآخر ويتركنى ؟ مستحيل .. مستحيل ..
- للمرة المليون لماذا نحيا .. لماذا نتعذب .. ولماذا نموت ؟
- ظلمت يقضى طوال الليل .. وفى لحظة إغفاء عند الفجر هاجمتنى أحلام
- مزعجة .. أنا فى مكان كل ما فيه أبيض .. ثم يتسلل اللون الأسود فيطمس

اللون الأبيض .. ويبقى لون مختلط من نور وظلمة .. وأنا ضائعة بينهما لا أصل
إلى نهار ولا أغرق في ليل .. ولكنى أقاوم وأجرى إلى شبه باب في المكان
أريد الهروب من هذا الحائط .. انتصب أمامي فجأة كائن عملاق لا ينظر
إلى ولكن يسد الطريق إلى الباب . أنا أجرى إلى باب آخر فيلاحقني المارد ..
استجمعت شجاعتي ووقفت أصرخ فيه .. استيقظت من النوم وأنا أصرخ ..
ضايقتني استيقاظي دون أن أصل إلى نتيجة ..

فى العاشرة كنت فى حجرة أحمد فى المستشفى .. تهلل وجهه بالفرحة
لرؤيتى ..

قلت بابتسام :

— هل زارك الطبيب يا أحمد ؟ .

— نعم ..

— وماذا قال ؟

— قال .. إنى لو سافرت إلى سويسرا لكان الأمل فى شفائى كبيراً ..

— إذن ستسافر يا أحمد .. وترجع بصحة جيدة ..

— نجلاء لقد تعودت طوال حياتى ألا أضحك على نفسى أبداً .. ودائماً

كان هناك إحساس داخلى يتحدث إلى ويهمس إذا كنت سأنتصر .. وهو
صامت الآن وصمته يخيفنى ..

— ولكن ستجرى العملية يا أحمد ، أليس كذلك ؟

— لا يا نجلاء لا فائدة ..

— لا تقل لا فائدة يجب أن تجربها ..

— بل إنى سأموت .. أجريتها أم لم أجرها ..

— هذا هراء .. لست أنت الذى تقول هذا الكلام .. ستسافر وستجرى

العملية . لماذا أنت صامت يا أحمد ؟ . من أجل حبي لك .. يجب أن تعالج نفسك ..

أمسك بوجهي في حنان وقال بوجد ..

— من أجل حبك سأجرى العملية .. أنا أريدك .. أريدك ..

— حبيبي سأنتظرك .. وستذهب وتعود بالسلامة ..

— أنت تعطيني أملاً مجنوناً ..

— بل أملاً عاقلاً .. وسأنتظرك يوم حضورك في المطار ..

— أهو وعد ؟

— إنه وعد بقاء وبقيلة وبجياة ..

— لقد أصبحت تجيدين التشجيع ..

سيسافر أحمد وأنا أخاف أن تنتكس روحى بعد سفره فلا يعود لحياتى
قيمة بدونه . فهو الذى يعطيها المعنى .. ولكن لا مبرر لهذا الخوف .. لقد
انتصرت على نفسى .. أنا قوية الآن .. ألم أقل إنى أستطيع أن أسيطر على
كل شئ حتى على حبي لأحمد ..

وسافر أحمد .. وبعد عني .. أياماً وشهوراً طويلة عشتها دون أن يبدو
لطولها نهاية ..

كان كل يوم يمر بدونه سباقاً مريراً أسابق فيه نفسى .. أسابق أشواقى
دقيقة بدقيقة حتى ألث آخر الليل وأقع من التعب ..

وأيقنت أنه لا مفر من أن ترتبط حياتنا .. وفكرت أن أعرض عليه
الزواج عند عودته لماذا لا يكون لنا الحق فى أن نفصح عن رغبتنا بالزواج
لمن نحب كما يفعل الرجل ؟ أليست هذه هى المساواة التى يقولون عنها ؟ .

ولا أدري كم من العذابات والأشواق مزقتنى حتى جاءت تلك اللحظة
الوردية التى رفعت فيها نادية التليفون لتهمس إلى ..

— نجلاء .. عندى لك أعظم خبر .. سيصل أحمد اليوم فى الرابعة تماماً ..
فى مطار القاهرة ..

فى الثالثة تماماً كنت أنا ونادية فى المطار ننتظر حضور الطائرة القادمة
من سويسرا ..

توقف الزمن عن دورته المعتادة ودخل فى توقيت الانتظار البطيء ..
عينائى معلقتان بساعة الحائط أمامى .. عقاربها بطيئة .. تكاد لا تتحرك ..

مرت خمس دقائق .. ونادية تتكلم عن الجو .. عما اشترته من أقمشة ..
عن ضيق حداثها الحديد .. عن لونه الذى تحبه .. وعن البايونة المثبتة فى
طرفه ولونها المختلف عن لون الحذاء .. وعن كعبه الرفيع المديب .. وعن
جلده الناعم . مرت عشر دقائق .. دخلت فى حديث مع نادية دون أن
أفهم ما أقول أو ما تقول هى فقط يمضى الوقت .. ومرت خمس دقائق
أخرى .. جمعتنا لحظات صمت .. ومرت خمس دقائق أخرى .. عادت
نادية للكلام من جديد .. ولم أسمع ما تقول تلك المرة عينائى ما زالتا معلقتين
على ذراعى الزمن الكسول .. الوقت يزحف .. يتلأأ .. ويففو .. ينام ..
مرت خمس دقائق أخرى .. خمس وعشرون دقيقة مرت .. لماذا لا تمر
خمس الدقائق الباقية ؟ . لن أنظر إلى الساعة .. لتسكع الثوائى كما تريد ..
ولكنى لن أنظر إليها ..

ظللت أشغل عقلى بأمور كثيرة .. فكرت فى أحمد .. فكرت فى نفسى

فكرت في ميعاد تقديم أوراقى إلى الكلية .. فكرت في قراءة كتاب .. ثم ارتفعت عيناي رغماً عنى إلى الساعة .. كل تفكيرى هذا لم يستغرق سوى دقيقة .. لن أنظر إلى الساعة مرة أخرى ولن أسمع لعينى أن تتوسلا بذل إلى الزمن ..

قمت وغيّرت مكانى .. ظلت الساعة تعذبنى حتى بعد أن أعطيتها ظهورى .. سمعت أزيز طائرة يقترب حتى ملأ صوته المطار كله وهز زجاج النوافذ .. جريت أنظر من النافذة إلى طائرة أحمد .. جاءت نادية خلفى تقول إن الساعة مازالت الثالثة والنصف .. ولكنى لم أسمع كلامها .. أنا أشعر أنها طائرة أحمد .. أعلنت المضيفة الأرضية أن الطائرة حضرت قبل موعدها بنصف ساعة .. أكملت المضيفة .. قامت الطائرة من سويسرا فى الساعة كذا .. ولم أسمع كلمة .. جريت أهبط الدرجات إلى أرض المطار ووقفت أهدق فى الطائرة وهى تهبط ثم وهى تلف أمامى .. وهى تتوقف .. ويفتح بابها ورحت أهدق فى المابطين .. وقلبي يخفق فى صدرى ويعلو صوته على أزيز محرك الطائرة .. ونزلت سيدتان فى المقدمة وفى أثرهما رجل عجوز وآخر شاب .. أين أحمد ؟ .. هبط رجل بمعطف قاتم .. أين أحمد ؟ راحت عيناي تنظران إلى ذلك الرجل من جديد .. يا إلهى إنه أحمد .. أحمد بلحمه وعظمه يهبط الدرجات وقد ازداد نحولا وشحوباً وعيناه تبحثان عنى .. رفعت يدى أشير له .. رآنى ، تهلل وجهه بفرحة غامرة ورفع يده يشير إلى .. أسرع إلى حتى لمس أصابعى من خلال السلك الذى يفصل بيننا .. ها هو أحمد أمامى حقاً ويده تلامس يدى .. الحمد لله ..

مضى هو ليخلص حقائبه من الجمر كوارتميت أنا بين يدى نادية .. أبكى ، أبكى من الفرحة ..

انتهى أحمد من إجراءات الجمرك وأخذ بيدي ويد نادية وخطونا
إلى عربة أجرة .. ومفت بنا العربة تخرق الصحراء .. لم أعلم من قبل
أن الصحراء ممكن أن تكون بهذا الجمال .. إنها ليست صحراء .. إنها جنة
مزروعة بالأحلام ..

التقيت بأحمد صباح اليوم التالى .. نظرت فى عينيه .. كأن بهما شيئاً قد
تغير .. شعاع النور الهزيل الذى كان يرسل ضوءه كلما تكلم .. انطفأ ..
قال أحمد بنبرة حزينة :

— أوحشتنى يا نجلاء ..

لماذا بنبرة الحزن العميقة تلك ؟

— أعلمين أنى لم أجر العملية ؟

— حقاً .. لماذا ؟

— لقد أعطونى نظاماً علاجياً وقالوا إنى لن أحتاج إلى إجرائها .. وأن صحى
ليست بالسوء الذى أتصوره .. ولكن يجب أن أعرض نفسى عليهم مرة
أخرى بعد العلاج ..

— هذا خبر عظيم يا أحمد .. لقد انتهى الكابوس إذن ..

— نعم ..

— أنا سعيدة بل أكثر من سعيدة .. أحمد لقد فكرت كثيراً طوال مدة سفرك
وأحسست أنى لن أستطيع العيش بدونك .. أحمد لماذا لا ترتبط ؟

- نجلاء .. أيتها العزيزة لن نستطيع ..
- لماذا ؟
- لأسباب كثيرة ..
- قل سبباً واحداً ..
- أنا لست جديراً بك .
- لا تقل هذا .. وقل انسب الحقيقى .. وهو أنك لم تحبنى قط ..
- هذا ليس صحيحاً ..
- صمت .. ولم يتكلم .. وكان صحنه مؤثماً جارحاً ثقيلاً ..
- نجلاء لن تكون زيجة مناسبة لكأينا ..
- انهضت الدموع من عيني دون إرادتى .. وربت هو على يدي ..
- كيف تقول هذا الكلام بعد أن امترجنا فى كل شىء وأصبحنا شخصاً واحداً ؟ .
- ليس هناك امتراج كما تتخيلين ، مهما قلنا سنظل اثنين .. مهما فعلنا سنظل اثنين .
- نساقطت سعادتى مع كلمات أحمد مهشمة إلى الأرض .. أنا التى حلمت أن أعيش معه أيامى كلها . كل أيام شبابى وأبد حياتى .. ماذا جرى لأحمد؟ إنه أحمد آخر .. لا أعرفه ، أين حنانه ؟ .
- عاد يتكلم .. لقد عشنا لحظات حلوة ونسجنا معاً أحلاماً جميلة ..
- إن كل كلمة يقولها تحطمنى أكثر .. إنه يشعرنى لأنى كنت أنسج معه نسجاً عنكبوتياً للذكرى .. وأن الأيام التى عشتها سيغطيها تراب الزمن وستمحوها يد النسيان ، لقد جعلنى أشعر من كلامه أننا غرباء وأننا كنا نلتقى ونفترق عبر أسوار وأبواب مغلقة ولم نصل حتى إلى أن تتلامس أيدينا .

بدأ أحمد يسرد صحته بمنعول الدواء الحديد ورأيت الحياة تعود إلى
أوصاله الذابلة .. ورأيت يورق أمامي ويتورد بالصحة والعافية .. أما عيناه
فكانتا تزدادان ظلاماً وحزناً .. كان يزداد غموضاً يوماً بعد يوم .. وينسحب
من حياتي بالتدريج .. ويبعد ويمعن في البعد .. وكان يجب أن أفعل شيئاً
حتى لا أموت ففرضت على نفسي البعاد ..
قررت السفر عند جدى فى العزبة ..

وهناك فى الريف الذى أحبه وسط الحقول الخضرة اللانهائية .. وسط
الطبيعة المصرية الصريحة البسيطة .. واجهت ألماً عاتياً جباراً .. واجهت
ألم الفراق .. ظلت ساعات أمشي فى الحقول وأبكي .. أتذكر حنانه
وأبكي .. أتذكر اهتمامه وأبكي .. وأتذكر قسوته وأبكي .. كنت فى حاجة
للحركة حتى لا أتجمد ، حتى لا أموت ..

ركبت الحصان وألتهته بالعصا .. فجرى بى وانحسرت الأرض من حولى
بسرعة وصفر الهواء فى أذنى وشد شعرى إلى الوراء .. أصبحت أنا والحصان
كتلة واحدة تخرق المجهول .. مجهولاً من الخطوط والمساحات .. والعواطف ..
أنا قوية وإن أضعف لقسوة أحمد .. سأهجره أنا .. تساقطت دموع جديدة
عند فكرة الهجران .. ولكننا سنفترق .. صرخت .. طر يا نمرود .. انطلق ..

لا تسهل سنفترق .. صرخت بالكلمة .. لأقنع بها نفسي وتساقطت أصداؤها
على الأرض ..

وفي المساء حملتني العربة عبر طرقات زراعية عديدة متربة وتحولت
أنا والعربة والليل إلى قطعة سواد .. وتلونت السماء .. والأرض .. وقابى ..
بالسواد .. وتحولت إلى جثة بلا أمل .. بلا نبض .. بلا رغبة في شيء ..

شقشقت عصافير عديدة في الفجر عند نافذتي فأيقظتني من نومي ..
صحا جسدي ، عيناى .. أذناى .. أطرافى كلها .. كانت تتحرك ، تسمع
وترى ، ولكن قلبي كان يعاني سكرات الموت ..

قضيت الصباح في الفراش .. وجاء جدى إلى حجرتي ملهوفاً يتساءل
عما بي وكاد يرسل في طلب طبيب كي يرانى .. ولكنى أكدت له أنى بخير ،
فقط متعبة ، مرهقة من العمل والسفر .. ثار بشدة على والدى لأنه سمع لى
بالعمل الذى أدى إلى إرهاق كل هذا الإرهاق .. ثم جلس غاضباً بجوارى
على الفراش .. وبدا حبيباً إلى قلبي وكدت أربت على وجنتيه ملاطفة فقد
بدا لى طفلاً غاضباً طريفاً فى غضبه ..

خرجت بعد الظهر من الفيلا .. نزلت الدرجات إلى الحديقة الواسعة ..
ظللت أمشى وأمشى ووجدت نفسى من جديد أبكى .. وأبكى .. وأحسست
بالدموع وقد غسلت أشجاني وكأنى حقل حنطة بعد يوم مطير .. وقد أصبحت
سنابله نظيفة لامعة مندادة . وداهمنى النوم فجأة . ثقل رأسى وشد جسدى
إلى الأرض فتداعيت تحت شجرة عجوز وسقطت فى غيبوبة غير كاملة ..
نائمة يقظة أحلم وأشعر بشكل غامض بما يجرى حولى ..

أحمد يبدو فى طريق غريب متلاشياً فى البعد .. ولا سبيل إلى الوصول

إليه . تباح كلاب يصل إلى أذنى .. والشمس تخطو آخر خطواتها نحو المغيب ..
وبضعة عصافير تترقز في إيابها إلى أعشاشها .. والمزرعة تلفها نسمة باردة
ترعشني والسحب تتلون بألوان ثقيلة .. رمادية .. بنفسجية وسوداء .. وتبدو
مطرزة بماسات النجوم وأنا غريقة في بحار أحزاني .. شبه نائمة .. لا أريد
أن أصحو وليست عندي المقدرة على انتزاع نفسى من تلك البحار اللزجة ..
من هذا الموت المؤقت .. مسحت على وجهى وأنا أتساءل أين أنا .. الدنيا
ظلام .. قمت واقفة وأسندت جسدى إلى جزع الشجرة وتذكرت تدريجياً
كل شيء .. وكانت أمطار الدموع التى انهمرت من عيني قد أنضجت حزنى
فأصبح ألماً ثقيلاً لاصقاً بى وكأنه قطعة من جسدى .. وعاد فكرى ينسج
عنكبوتاً من الأفكار الغريبة ..

فكرت وأنا أجتاز سور الحديقة فى اليوم التالى إلى الحقول .. أن الحياة
هنا تبدو وكأنها بلا قضبان وكأنها بلا زمن .. بلا عيون .. بلا ألسنة ..
بلا فضول .. هنا بساطة شديدة وسلام .. وتمنيت لو أعيش هنا .. حيث
الهدوء .. والصمت وحيث لا شيء يسمع إلا صوت القلب ..

لقد مضت سنوات عديدة منذ كنت هنا آخر مرة .. ومع ذلك يبدو أن
كل شيء مازال على حاله البيوت مازالت طينية كما هى والوجوه صفراء ..
والأطفال جالسون على الأرض بجوار الجدارن كأنهم نفس الأطفال الذين
رأيتهم منذ عشرين سنة .. كأنهم لم يتحركوا من أماكنهم .. ولم يأكلوا من
يومها .. ولم يغيروا ثيابهم الباهتة .

نبات الطفولة مهمل بجوار الحائط .. الذباب يأكل من وجهه والرمد
يسمل عيونه البريئة ويطغى جذوة الذكاء من أحداقه إلى الأبد .. لا جديد ..
الحياة لم تتغير ولكن الذى تغير هو أنا .. أنا التى تغيرت .. كلمات أحمد هى

التي غيرتني .. هي التي جعلتني أرى هذا القبح الذي كنت أمر به دون أن أراه .. لأنني لم أكن أريد أن أراه ..

هرول صالح الجنايني ناحيتي .. وانحنى على يدي يلثمها .. فأسرعت بسحبها ورأيتة يلتفت من خلني ويسب الأطفال ويأمرهم بالابتعاد .. ورأيت مجموعة من الأطفال تتقافز ورأى .. وفهمت أنهم كانوا يتقافزون طوال ورأى ليتفرجوا على ويقلدوا مشيتي ترى كم من الحقد أثرت في تلك الصدور الصغيرة بمشيتي هذه ؟ ليتني لم أمش على الإطلاق ..

كيف تبادر إلى ذهني أن الحياة هنا بلا قضبان .. ؟ الحياة هنا مني .. بل سجن كبير .. وكل الذين يعيشون هنا سجناء الفقر مدى الحياة ..

أصر عم صالح على أن أشرف بيته بزيارتي لأتناول كوب شاي .. قبلت دعوته لأنني شعرت أن ذلك سيسعده ..

أمام بيته الطيني سبقني إلى الدخول ليوسع لي الطريق وراح يرحب بي بكلمات طنانة رنانة ..

هرول صغيران من مكان ما في القاعة .. واختبأ خلف الزير وراحا ينظران ألى بفضول وجاءت أمهما ترحب بي مخفية نصف وجهها خلف طرحتها السوداء في حرص خشية أن تفاجأ بوجود رجل معي .. واقتربت مني وربتت على كتفي تعيذني بالله وبالرسول وبأم هاشم من العين .. وشر العين .. وشدتني إلى أحضانها بود ومصمست شفيتها بجوار خدي في قبلات ساذجة .. وشممت وأنا في أحضانها مزيجاً من روائح دقيق وحلبة ونعناع وتراب ..

طلب منها زوجها أن تصنع لنا الشاي .. تباطأت وأرسلت لعيني زوجها نظرة ناعمة .. نظرة امرأة تعلم مقدار مكانتها في قلب زوجها .. وأدهشتني أن تنمو نظرات الغزل وسط كل هذا الفقر ..

انسحبت المرأة إلى ركن القاعة لتعد الشاي وراحت تستعيد ذكريات طفولتي في هذا الريف الذى يحوطنا ..

ورجعت مع صوتها المملوط .. إلى ذكريات طفولتي .. وفجأة أحسست ثوبي يشد ، والتفت .. ورأيت عينين براقيتين ويد صغيرة سمراء تداعبني ثم تختفى بسرعة خلف الزير ورأى ..

أدهشنى هذا الصغير الطريف .. الذى لم يرهبه شكلى القاهرى ولا آيات التبجيل التى يضيفها أبوه على .. لقد انجذب إلى بإحساس فطرى بالحب .. وهو واثق أنه سيجد صدى لشعوره ..

انتهت المرأة من صنع الشاي .. وقدمته لنا وهى تردد أنه ليس « قد المقام » وتسأل الصغير الذى كان يداعبني خطوة .. ثم خطوة .. حتى أصبح يجوارى تماماً فداعبت خده وصوبت نظرة إلى عينيه الماكرتين .. فابتسم .. بينما شحط فيه أبوه : اختش يا واد .. ولكن الصغير ظل مستكيناً بجانبى .. وأحسست بحب جارف يملؤنى نحوه .. وبأمومة مفاجئة تجتاح قاي .. ترى ما هو مستقبل هذا الصغير ؟

تلقت حولى إلى مصيره المكتوب على الجدران السوداء .. على الأرض التى ينام عليها .. على وجه أمه التعس .. وجيوب والده الخاوية .. ماذا أستطيع أن أصنعه من جل هذا الصغير ؟ ماذا أستطيع ؟

أستطيع أن أنفق عليه وأعلمه .. ولكن ماذا بشأن أخيه .. ؟ وماذا بشأن باقى أقرانه ؟ . وإذا أنشأت مدرسة .. ماذا يكون شأن القرى الأخرى ؟ وماذا عن الفقروالتعاسة فى العالم أجمع ؟

كنت أسمع كلمات أحمد تتجسد لى فى كل خطوة .. حقيقة لا سبيل إلى دفعها . كان معى .. كان أمامى .. كان حولى .. فى ذلك الحزن الكالح الترابى ..

ولكنه تغير .. لم يعد يحبني وأنا لا ألومه .. أنا أحترم حرية عواطفه حتى
لو كنت ضحيته .. إن العواطف هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن اصطناعه ..
إنها نسيج شفاف ينسجه قلب طفل أرعن .. ذى أهواء فكيف ألوم طفلا على
طفولته .. ولكنى أنألم برغم ذلك .. بل أموت ..

كل هذا المنطق لا يقنعنى .. لا يقنع قلبى ..
ولا راحة لى إذا استطعت أن أبر هذا القلب .. وأعيش بعقلى وحده ..
بلا حب ..

كم من الأيام .. بل كم من السنين .. بل كم من الأجيال أنا فى حاجة
إليها لأقوم بتلك الجراحة ..

رجعت أخيراً إلى القاهرة لأواجه حقيقتي ..
 وقررت ألا أتصل بأحمد .. يجب أن أنسحب من حياته مثلما انسحب
 هو من حياتي .. ولكن ما حيلتي .. في حجرتي التي طالما شهدت لهفتي ،
 واضطرابي وأنا في طريقى إليه .. ومرآتي التي رأت النجوم تسطع فجأة في
 ليل عيوني لأنى سأراه ..

ما أقسى كل ذلك .. ولكن برغم كل شيء هذا الحب انتهى .. ولیمت
 قلبي في صدري ولأمت أنا أيضاً .. قبل أن أجرى خلفه في مهانة لأتسول
 حنانه وعاطفته ..

وجاءت نادبة لزيارتي ..

— حمد الله على السلامة يا نجلاء .. كيف تسافرين فجأة دون أن تقولى لى
 أو تقولى لأحمد ؟

— أحمد .. ولماذا أقول له ؟

— لماذا تقولين له .. أليس أحمد صديقك .. بل حبيبك .. ؟

— كان ..

— ماذا تقولين .. ؟

— أقول الحقيقة ..

— ماذا جرى .. ؟

- لا شيء ..
- كيف .. لا شيء ..
- أحمد لم يعد يحبني .. وأنا أيضاً بدأت أنسحب من حياته .. هذا كل ما في الأمر كل ما في الأمر ..
- وقمت من مكاني إلى النافذة وأعطيت ظهري لنادية حتى لا ترى وجهي الذي أصبح بالتأكيد رهيباً .. وأردفت حتى أتجنب النظر إلى وجهها ..
- كأي قصة حب عادية .. تنتهي قصتي ..
- لماذا تشوهين حبك هكذا .. ؟
- أنا لم أشوّه ..
- بل تشوهينه عندما تقولين عنه إنه قصة حب عادية ..
- ولكنها كذلك ..
- لا .. إن قصص حبنا تظل أبداً قصصاً غير عادية .. حتى لو كانت في الواقع عادية للغاية .. وعندما أسمعك أنت بالذات تقولين ذلك فأنا لا أصدق ... لا أصدق .
- أحسست فجأة بنادية ورائي .. فمسحت دموعي بسرعة وسمعتها تقول ..
- ماذا قررت .. ؟
- قررت ألا أراه ..
- أنت تهربين ..
- أهرب من ماذا ؟
- تهربين من نفسك ..
- بالعكس .. أنا أواجه نفسي .. بل إنها لأكثر فترات حياتي قوة .. لأنني لا أجد مفرّاً من مواجهة نفسي بلا مواراة ..

— لماذا تهربين منه وهو يحبك وقد اتصل بي تليفونياً أكثر من مرة مبدياً
عجبه من رحيلك المفاجيء .. وصمتك ..

— لو بقيت لانتحرت .. كنت في حاجة للبعد .. كنت في حاجة لأغرق
نفسى فى أى شىء آخر غير حبي .. وقد أغرقت نفسى فى مآس أكثر
جدية من قصة حبي .. فتضاءلت بجوارها مأساتى .. بل حزنى .. فليس
فى قصتى أى مأساة ..

— لماذا تفعلين هذا بنفسك .. ؟

— أنا لم أفعل شيئاً .. لقد بدأ هو كل هذا .. فلماذا كان يجب أن يموت هذا
الحب فليمت ..

ولم أحتمل فأجهشت بالبكاء .. وأخذتني نادية فى أحضانها وراحت تربت
على رأسى فى حنان ..

— لا تبكى ، لا تبكى يا نجلاء ..

وعندما خرجت نادية بعد وقت طويل ظللت أحملق فى المرأة وأغوص
فيها .. فهذا الشكل يكون أنا أمام الناس ..

رمى عبده السفرجى بسماعة التليفون وراح يكلم نفسه ..

- من هذا السخيف الذى يدق التليفون الساعة أربعة كل يوم .. ولا يرد ..

لماذا لا ينام كخلق الله فى الظهر قليلا ؟

إنه لا يبيش من طلبى .. فيم كان انسحابه إذن ؟ وماذا يريد منى ؟

ومضت أيام أخرى ..

جلست فى المساء بجوار الراديو أسمع بعض الأغاني .. ورحت أثبت

الغرز الأخيرة فى مفروش كانفاه .. رن جرس التليفون بجوارى .. ورفعت

السماعة .. ترى من المتكلم ؟ ربما تكون شريفة ..

- آلو .. ؟

- نجلاء ..

- نعم ..

إنه أحمد .. كيف وقعت فى هذا الشرك .. لماذا يتصل بى فى المساء ..

- أريد أن أراك ..

- لماذا ؟

- لماذا ؟ . أنا أحب أن أراك دائماً .. لماذا لم تخبرينى بعزمك على السفر ؟ .

- لم يكن بعزمى السفر .

— نجلاء .. لن نتناقش فى التليفون .. يجب أن أراك .. نجلاء أرجوك ..

—

— لا تصمتى .. سأنتظرك فى الكازينو .. غداً فى موعدنا .. إلى اللقاء ..

وأقل الخط قبل أن أجيب بلا أو نعم .. وتركنى فى حيرة .. هل

سأذهب .. ؟ لا ليس عندى ما يقال .. وليس فى قلبى عواطف الحب القديمة ..

كل شىء يبدو كأنه مضى منذ زمن طويل .. كأنها حكاية شخص آخر ..

إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا أواجهه .. لماذا أهرب منه كما تقول نادية ؟

أنا لا أخافه ولن أضطرب فى حضوره كما كنت أضطرب .

وفى الموعد كنت هناك ، لم تكن بقلبي فرحة .. كان به فتور .. ولكن كان

بعينى أحمد لطفة إلى لقائى وشوق ..

— نجلاء لقد أوحشتنى ..

ابتسمت وأكمل هو ..

— لماذا لم تخبرينى بعزمك على السفر .. لماذا تركتني حائراً هكذا .. ؟

— ولماذا تختار ؟ . أنا لم أغب كثيراً .. وأحياناً كانت تمر أيام دون أن يرى

أحدنا الآخر .. ما الغريب فى هذا ؟

قال فى حيرة :

— نجلاء لقد كنت تخبرينى بكل شىء .. حتى بأحلامك .. وبالأفكار

التي تدور فى رأسك .. ماذا جرى ؟

ثم قال بشىء من المرح :

— اعترفى أنك أخطأت .. هيا اعتذرى ..

— أنا لم أخطئ ..

— إذن أنا المخطئ وأعتذر ..

- قلت أغیظه ..
- وأنا قبلت اعتذارك ..
- قال بدهشة ..
- عن ماذا ؟
- عن طلبك اعتذاراً ..
- هكذا ؟ .
- نعم ..
- ضحك وقال ..
- أنت لست نجلاء اليوم .. لتكلم فى شىء آخر . أتعلمین أنى أكتب كتاباً جديداً ؟ .
- حقاً .. ؟
- لماذا لا يناقش موضوع علاقتنا بصراحة .. لماذا يهرب من المواجهة ؟
- أردف ..
- عندى كلام جديد أريد أن أقوله .. أفكار جديدة غيرت وجهة نظرى ومعتقداتى القديمة ..
- سكت لحظة ثم أضاف ..
- سأكتب إهداء مطبوعاً لك على الكتاب .. لإننى أكتبه وأنت ورائى فى كل كلمة .. لماذا يضعف قلبى الآن .. وما تلك النعمة المفعمة بالعاطفة فى نبرات أحمد القاسية ؟ . لماذا هو عاطفى اليوم ؟ سمعته يعاود الكلام ..
- نانا ماذا بك .. لماذا تبتهدين ؟
- إنه لأول مرة يدلانى دون أن يشعر .. ماذا جرى لأحمد ؟
- أنا لا أبتعد .. أنا معك ..

— إننا قريبان جداً وبعيدان جداً .. أين تخلقين بخيالك ؟. أنت لا تسمعين كلامي ..

لماذا يقرب أحمد مني عندما أجد القوة على الابتعاد عنه .. لماذا يتمسك بي عندما أصبحت أستطيع الإفلات من قيوده .. ماذا يريد مني ؟ . أنا لا أستطيع الاستمرار في حب بلا أمل .. بلا هدف .. إلى الأبد .. إن الأيام الأخيرة طحنتني .. سحقني ، أطاحت بعقلي .. إن علاقتي قلقة على الدوام .. وأنا لا أستطيع العيش هكذا بين اليأس والرجاء .. بين الحياة والموت .. ولكن هذا القلب الطفل يفرح لحلوى كلامه وأحمد يتكلم بعذوبة اليوم .. ولا يستطيع الطفل في صدرى مقاومته ..

جاءني صوته مرة أخرى عبر الهوة التي تفصل بيننا ..

— نجلاء .. ماذا يحزنك ؟ . أنا لا أتحمل أن أراك حزينة ..

هززت رأسي أقول :

— لا شيء ..

ونادى هو الجرسون ونقده قروشه .. وأخذ يدي بين يديه وهويقول ..

— أنت في حاجة للمشي .. والثرثرة ..

ومشينا كأيامنا الماضية .. يدي في يده .. وقدمه تصاحب قدمي .. وهواء الخريف المشرب بالبرودة يصفع خدي ويدفع بنفسه من فتحة الثوب فيعرش جسدي وأزداد إحساساً بأنه يتلصص على .. إننا نمر بنفس الطرق كأيامنا الماضية .. ولكن شيئاً في أنا وفيه هو كان قد تغير .. إحساسي أن تلك اللحظات مآلها أن تذوي كذكريات ميتة بلا غد .. بلا مستقبل .. وشعوري أنه هو قاتل اللحظات الجميلة لأنه لا يتيح لها مستقبلاً .. ولماذا يفعل ذلك ؟ . أنا لن أسأله .. أنا ما زلت لا أحب الشتاء .. والخريف بوابة ندخل منها مرغمين إلى

جبانة الشتاء .. السماء تفقد ضياءها الباهر .. في عتمة الغيوم .. والأشجار
تفقد أوراقها ..

قال أحمد :

— نجلاء .. تحدثي ، قولي أى شيء ..

ما فائدة أن أتكلم مادام هو لا يحس بالعذاب في أعماقي .. ماذا أقول له ؟
لن أقول له شيئاً .. أجبت :

— لا شيء .. مجرد تلك الفترة من السنة لا أحبها ..

— لماذا ؟

— لأنها توديع لسنة من عمري .. فالأيام تجري والسنون تجري .. ونحن ليس
في يدنا سوى أن نحيا قيمة الصك الذي أعطته لنا الحياة بمبلغ من السنين
لا ندرية .. فإذا انتهى انتهينا .. أضفت بعد فترة من الصمت ..

— كل شيء يموت .. لا شيء يخلد أبداً .. إن مجرد تصوري أن كل الناس
الذين يعيشون الآن يموتون كلهم ويأخذ مكانهم ناس أغراب لا أعرفهم
ولا يعرفونني .. هو شيء محزن .

قال أحمد :

— هذه نظرة حزينة جداً إلى الدنيا .. لم يكن من عادتك أن تنظري إلى الدنيا
هذه النظرة ..

ولم أشأ أن أقول له أنت الذي علمتني هذه النظرة .. أنت الذي أورثتني
هذا الحزن الذي لا شفاء منه .. وسمعته يقول .. في استسلام ..

— تلك هي الحياة .. ليس أمامنا سوى أن نحياها ..

— وسوى أن نرضخ ؟

— إذا أردت هذا التعبير فاستخدمه .. هو رضوخ جميل على أى حال ..
جميل أن نحيا ..

- وجميل أن نموت ؟
- ربما .. ما جدوى الاستمرار في الحياة .. إذا كنت قد عشت لحظات بعمق واستمتعت بمباهج جمالها .. وحاولت أن تفهمها .. إن الموت يصبح نتيجة حتمية عندئذ ..
- قلت بعد تفكير :
- أتعلم لماذا لا تترك الطبيعة أحداً يخلد ؟
- نظر إلى أحمد باهتمام .. أردفت :
- لكيلا يكتشف أحد سرها .. إنها تميته بكل كنوز معرفته وتجاربه وعلمه .. إنها تفنيه ليعود من أول الطريق كطفل رضيع .. يحاول صبيّاً وشاباً ورجلاً ... حتى إذا نبغ أنت عليه خوفاً على سرها من الذبوع .. ولتظل أبداً لغزاً مغلقاً علينا ..
- لماذا وجدنا .. لماذا نحيا .. ولماذا نموت ؟
- ولكن الإنسان لا يموت بكل تجاربه .. إنه يتركها للناس من بعده ..
- يترك بعض الذى أدركه .. لقد ماتت بالتأكيد حقائق كثيرة مع الذين ماتوا واندثرت إلى الأبد ..
- أنت تستطيعين إدراك أجوبة كثيرة على أسئلتك العديدة .. دون خلود من مجرد حبك للحياة .. ومحاولتك فهمها .. عيشى وتمتعى بحياتك ..
- هذا هو كل ما نستطيع قوله ..

قررت أن أستمتع وحدي بشيء صغير .. دون أن يشا ركني إياه أحمد ..
 خرجت بعد ظهر اليوم إلى الشارع .. مشيت بجوار الشاطئ .. وحيدة ،
 وإلى مدى بصرى كان الطريق خالياً من أى إنسان .. والشجر تنساقط أوراقه
 ليتلقاه الهواء فى دوامة دائرية تصعد بها إلى أعلى ثم ترميه إلى الأرض .. والنيل
 يسرع الخطأ .. تدفعه آلاف الدوامات إلى مصيره ..

وفى السماء تكدست كتل ضخمة من السحاب .. رمادية .. والبيوت
 الموازية للنهر بدت مقفلة كلها كأن أحداً لا يسكنها ..

وحشة .. فى كل مكان .. وأنا مصرة برغم الوحشة على الاستمرار فى
 نزهتى . ومضيت أعد خطواتى .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة ..
 ستة .. سبعة ثمانية .. تسعة .. ولكن لماذا لا أستمتع بالنزهة اليوم .. وهى
 تماماً كنزها أمس ؟ . فقط لاتصاحب خطواتى أحمد ولا تمسك يده
 بيدي .. ولا ينفذ إلى أذنى صوت صفير الهواء ووشوشة أوراق الشجر بجوار
 الرصيف .. إن ما ينقصنى هو أحمد ..

رحت أفكر فى أسباب حزنى تلك الأيام .. لماذا صنعت بنفسى كل هذا
 العذاب ؟ .

إنه أحمد والتغيير الذى دخل على تصرفاته نحوى .. وانسحابه القامى
 من حياتى .. ولكن لماذا لا أقبل أحمد كما هو ؟ . لماذا لا أقبل تغيره ؟ .

يوم أن كنت عند شريفة فكرت أن عيب المرأة وتخلفها يرجع إلى أنها
تصنع من الرجل كل حياتها .. وها أنا قد صنعت من أحمد كل حياتي للدرجة
أن تغيره قد قلب حياتي رأساً على عقب .. ولكفى سأقبل أحمد كما هو على
علاته وأجعله جزءاً من حياتي وليس حياتي كلها .. أرضاني هذا التفكير ..
وجعلني أتخلص من تعاسي إلى حد كبير ..

قدمت أوراقى إلى كلية الفنون .. وقبلت .. ومضيت أنتظر بداية العام
الدراسى الجديد .. إلى أن يبدأ رحى أفكر .. ماذا يجب أن أفعل بنفسى ؟
ركبت العربى إلى شارع قصر النيل .. وابتعت ستائر وردية مزينة بورود
وابتعت أثواباً جديدة .. وداخلتنى فرحة وأنا أبتاع هذه الأشياء ..
ازدادت الفرحة فى قلبى عندما تم تفصيل الستائر .. وأسدت على
النافذة والشرقة فأعطت للحجرة جواً بهيجاً وأسبغت على النور الذى ينفذ
من فتحات الشيش الصغيرة لونها الوردى الشاب ..

ارتديت ثوبي الحديد وذهبت لمقابلة أحمد .. ودخلت إلى الفندق الكبير على
النيل .. فتح لي الباب الزجاجي .. فدخلت إلى الداخل .. أخذت العيون تنظر
إلى .. وتنسلق قامتي .. وتمهل عند وجهي وتلتصق بجلدي .. لم آبه لها .
انجهت إلى مائدة متروية .. حيث ينتظرنى أحمد .. خلعت فردة قفازي
بتمهل ورتبت الواحدة بجوار الأخرى بهدوء .. إن الهدوء يغلفنى بالرضا هذا
الصباح ..

— كيف حالك يا نجلاء ؟

— أنا فى أحسن حال .. لقد أصبحت الحياة فجأة ترضينى .

قال بهدوء ..

— جميل .. ولكن ما السبب ؟

— لست أدري .. ربما لأننى غيرت ستائر حجرتى ..

— هذا سبب طريف جداً ..

— أصبحت أحب فجأة كل الأماكن وكل الناس ..

— وماذا أيضاً ؟

— واشتريت فستانين جديدة ..

— أنت دائماً تشتريين ..

— أنا فكرت .. وفكرت .. ربما أصبحت الحياة جميلة لو حاولت أن أجد لى

هدفاً أعيش من أجله .. لو تعلمت شيئاً .. إننا خلقنا لتعلم .. أنا أنظر
إلى الوردية في الإناء أمامي .. إن كل الفرق بيني أنا العاقلة وبين تلك الوردية
أنها تنمو تلقائياً .. هذه النتيجة أمدتني .. وحقت الوفاق بين روحي
وجسدي .. فلم يعودا منفصلين كدأبهما في الماضي .. ولم يعد جسدي
بيتاً بلا نوافذ وبلا أبواب .. سوف أحاول أن أنمو مثل هذه الوردية ..
رفعت عيني إلى أحمد فوجدته يحاول محاولة فاشلة للابتسام لمشاركتي
سعادتي .. إن أحمد جزيرة .. وأنا أيضاً جزيرة .. كلانا منفصل عن
الآخر بمياهه الخاصة .. من المستحيل العبور إليه ..

همس أحمد :

— من أحزاني انبعثت سعادتك وانفتح أمامك طريق النجاة .. لسنا سوى
الطبيعة نفسها .. تموت الزهرة ومن حبوبها تنبعث حياة أخرى ..
لماذا يتكلم أحمد هكذا اليوم ؟ .
— أنا أموت من حياتك اليوم .. وغداً أموت من الدنيا كلها ولا يبقى سوى
الكلمة التي أقولها وأمضي ..
عاد أحمد ليأسه .. وقسوته ..
— ليس هناك حب على الإطلاق .. ليس هناك حب للآخرين .. هناك حب
النفس فحسب .. الحب الكبير الواحد .. حب الصيرورة .. ما أكونه في
كتاب أو لوحة .. وكل ما عدا ذلك يموت ويتحلل ..
قلت ..

— أنا آسفة لأنني آلمتك ..

— لا .. لا تأسني أنا من داخل شقائي سعيد .. سعيد أن أكتشف ذلك .. فلا
شيء يعلو على الحقيقة .. لا شيء .. لا أنا ولا أنت .. ما نحن سوى وسائل

لتكشف الطبيعة عن نفسها وهي تظهر فقط للذى يضحى ويعطى أكثر من نفسه ومن ذاته .. عندئذ تعطى الطبيعة جزءاً من حقيقتها ويقدر ما تعطى بقدر ما تمنح ..

صمت أحمد وشرد بعيداً واصطبغت عيناه بنظرة غامضة كأنها تطل على عالم آخر .. وشعرت أنى لا أستطيع أن أصل إليه إلا بالأم كآلامه .. كان يبدو لى أكثر غموضاً من أى يوم .. عاد يقول :
- اسمعى هذا المعنى الحزين من داخل سعادتك ..

أنت سعيدة لأنك تقتلين حبي فى قلبك .. أنت تهجرينى وأنا بجوارك .. وعندما تنقطع صلتك بى سيتوقف بالتالى عذابك .. حاولت مقاطعته ولكنه أكمل :

- لم أعد أملاً أو هدفاً فى حياتك .. ولم يكن وراء كل تلك العواطف سوى حبك لنفسك فلما انقطع أملك انطفأ بالتالى ما ظننته حباً لى .. وكان فى الحقيقة حباً لذاتك .. قلت :

- لماذا تربط حبي بالحديد للحياة بعدم حبي لك .. ألم يكن هذا اليوم هو هو اليوم الذى انتظرت لى .. يوم أن أحب الحياة ؟ ولكنك تتخلى عن علو الفنان وتنزل إلى أنانية العاشق فتغار من حبي الحديد للحياة لأنه سوف يأخذنى منك ..

رد أحمد فى شرود :

- نجلاء .. أنا لا أفهمك ..

- سوف أشرح لك نفسى .. بل سأعري عواطفى .. وأحكى لك حبي دون خجل ..

- هو نوع من الحب لم تعرفه ولم تحسه .. وأنا أمنحه لك لتضيفه إلى جزئيات الحقيقة التي تلمع وسط ركام الحياة والتي شغفت بجمعها .. بدأ حبي بحاجتي الملحة لاهتمام شخص ليثبت وجودي أيامها كنت في حالة من القلق والشك والضيق بعد موت أخى .. وعندما ظهرت أنت ووجدت في عينيك ذلك الأسمى أحببت حزني فيك .. وكدت أن ألصق بك التصاقى السابق بأخى ولكنك أبعدتني .. وأعطيتني الثقة بنفسى وشجعتنى على أن أقف وحدى .. وأنا أعترف بأنى أدين لك بذلك التكوين الجديد فى نفسى .. ذلك التكوين الذى أخذ ينمو ويصنع جميع تصرفاتى .. أصبحت على وفاق مع نفسى فأصبحت بالتالى على وفاق مع الآخرين .. أحببت الحياة وأحببتك وأحببت كل شئ فىك حتى ذلك الصراع الذى يلازم جلساتنا .. وفوق ذلك منحتنى يا أحمد الوعى الوطنى ومنحتنى الشعور بالانتماء إلى بلدى مصر ولكنك فجأة وبدون مقدمات بدأت تغير .. بدأت تبعد .. وشعرت أنك تريد الانفصال .. واستبدت بى الحيرة .. وكان يجب أن أفعل شيئاً حتى لا أفقد عقلى .. وسافرت هاربة إلى العزبة .. وهناك استطعت أن أصنع بنفسى من الداخل شيئاً أشبه بالاستئصال .. والآن مازلت أحبك ولكنى أستطيع أن أبتعد أو أقرب منك دون أن أموت ..

أمسك بيدي وضغط عليها ضغطاً قوياً حبيياً وامتلاأت عيناه فجأة بدموع حقيقة .. ظللت أنظر إلى هذا الوجه الأسمر الذى أحبيته وهاتين الشفتين الرقيقتين ذات التعبير الصادرم . والإرادة الماضية ..

رفع أحمد إلى وجهها فيه نظرة جد روعتنى وبعثت الخوف إلى قلبى .. قال.

- نجلاء .. إذا كنت تملكين تلك الشجاعة الكبيرة التى تأبى الكذب ولا تتوسل بالكبرياء الزائفة .. فأنا أكون شجاعاً وسأقول لك الحقيقة .. برغم الآمال

الكاذبة التى يلفقها لى الأطباء ، فأنا أعرف بإحساس أنى أموت .. وأن
خلية وراء أخرى فى جسدى تضعف وتغمض جفניה وترفض منزلة
جيوش المراض التى تغزو جسدى فى كل لحظة .. أنا أموت تدريجياً وأرفض
أن أصنع منك أرملة ..

— لا تقل هذا يا أحمد ..

— الحياة لا تتوقف لموت أحد .. ولا تصمت لحظة إجلالا لذكرى إنسان
راحل وإنما هى تنساب فى هدوء قاس متبلد القلب .. وكان الموت مسألة
لا تعنيها ، وكأن الميت لم يكن له ذات يوم صوت يملأ الدنيا .. ولا مفرلنا
من الاستسلام أمام تلك القسوة ..

— إن كلمة الاستسلام لا تليق بك يا أحمد .. أنا لا أَرْضى لك أن تقول هذا
الكلام .. أول ما أحبيت فيك كانت نظرة التحدى بعينيك ..

أحمد .. من أجل فنك .. من أجل حبنا سافر .. تمسك بآخر أمل
قاله الأطباء .. يجب أن تصارع من أجل ذلك الكنز الذى يحتويه جسدك.
صارع يا أحمد .. لا تستسلم .. وإذا كان يجب أن تموت فيجب أن تموت
ونحن نصارع الموت بلا خوف ..

انبتق فى عيني أحمد نور أضاء كل وجهه وشملى ورفعنى على ضوئه
إلى مماء رحبة واسعة .. تلامست أيدينا وتعانقت روحانا بوقاف وأمل ..
وسافر أحمد ..

سافر أحمد وبقيت وحدى فى القاهرة .. بل لم أبق وحدى .. بقيت
مع نفسى .. تلاشى لأول مرة شعورى الدائم بالغرابة .. فقد وجدت نفسى ..
ولكنى برغم ذلك ظللت أفقد أحمد الحبيب الذى أدين له بكل حياتى ..

افتقد أحمد البطل الذى كان يعلم طوال الوقت أن الأطباء يكذبون
عليه بالآمال .. وبرغم ذلك استطاع أن يعيش ويهزم العدو الذى يسكن فى
جسده والعدو الذى يسكن فى بلده .. استطاع أن يعيش ويحارب فى جميع
الجبهات ..

وجاء أحمد فى رسالة ..

« نجلاء .. يا حبيبتي الصغيرة التى أصبحت جزءاً من نفسى ..

ها أنذا أصارع .. كما أردت لى أن أصارع .. وأحاول أن أصنع
المستحيل .. ترى هل أعيش لأصارع الصراع الكبير .. وأهزم الداء الكامن
فى بلدى .. كما أهزم الداء الكامن فى جسدى ؟ . هل أعيش لأرى اليوم
الذى يأكل فيه الجائع ويكتسى العريان .. وتحقق العدالة وينتهى طاغوت
الظلم والظالمين ؟ .

هل أشهد ذلك الفجر الرائع ؟ . »

قرأت الخطاب بدموع اليأس وقرأته أيضاً بابتسامة الأمل .. وظللت
أقرؤه وأقرؤه حتى حفظت الكلمات .. معنى الكلمات .. شكل الكلمات
وخط الكلمات .. ظللت أردد جملاً بأكملها كترنيمة روحية من السماء ..

جاءتني الجريدة مع الإفطار في حجرتي .. تناولت الشاي كعادتي وأمسكت الجريدة وقرأتها .. قرأت العناوين الكبيرة .. وانزلت عيني إلى شبه اسم أحمد على الصفحة الأولى .. إنه ليس شبه اسمه .. إنه اسمه فعلاً .. ما الذي جاء بإسم أحمد في الصفحة الأولى كخبر ؟ . الخبر يعلن ماذا ؟ الخبر يزعم أن أحمد مات .. كيف تزعم جريدته أنه مات ؟ .. كيف تخون ابناً من أبناؤها ؟ . أحمد لا يمكن أن يموت .. أحمد وعدني أن يصارع ويرجع منتصراً .. حبيبي لا يمكن أن يموت .. كيف قبل رئيس التحرير أن يدس هذا الخبر الكاذب في جريدته ؟ . وكيف رضى زملاؤه بذلك ؟ . وكيف تأمروا ضده ؟ حتى جامع الحروف الذي طالما جمع أفكار أحمد هو نفسه الذي جمع تلك الحروف السوداء المشنومة .

أمسكت الجريدة مرة أخرى وبدأت أقرأ من جديد .. ليس هناك خطأ .. المعنى صريح واضح والكلمات المرصوفة السوداء تنعى أحمد .. الكلمات في حروف قليلة باترة .. وأحسست أني أنزلت .. أغوص في بحر الحزن الأسود وأغرق في سواد الحروف .. تمنيت أن أموت .. أن أتجمد .. أن أتحوّل إلى تمثال لا يشعر .

أمسكت بالجريدة وقلبت الصفحات لأقرأ العزاء التقليدي .. أحمد مات .. ومع ذلك تشرق الشمس كعادتها كل يوم وكأن لا شيء

حدث ..

اردت شيئاً يجسم لى أحمد .. شيئاً يقربه منى .. وهناك فى العزبة أحسست
 به فى الأرض .. فى ثراها الطيب .. وبراعمها الخضر ..
 رحت أتجول فى الحقول وأتأمل السماء وأتذكره .. إنه لم يضع منى ،
 إنه هنا معى .. يكلمنى بلغة الورود والأنسام :
 هبت نسمة باردة على المزرعة أثلجت وجهى وأطرافى . ضممت الجاكت
 إلى صدرى ومضيت أسمع صوت أحمد الذى تحول إلى موال رينى عميق ..
 هبط الظلام على الكون رويداً ومسح بقايا الظلال ..
 إن أحمد لم يموت .. إننى أراه فى كل شىء جميل .. فى الطبيعة الفناة ،
 فى الأسى الذى يغلف السماء فى رحابة الأفق .. إنه لم يموت إنه يكلمنى ويتحدث
 معى عبر الكون كله ..
 إن الواحد منا لا يموت .. إننا أجزاء من الطبيعة الأم .. نفصل عنها
 بالحياة .. ثم نعود إليها بالموت .. فتصبح الطبيعة الكل ..

رجعت إلى القاهرة .. وتحول حزنى العميق إلى إحساس ملح بأن الحياة
يجب أن تستمر .. واجبى نحو ذكرى أحمد .. ونحو نفسى أن أستمر أن
أصارع قدرى وأنتصر فى تلك اللعبة غير المتكافئة .. واجبى أن أصنع من
نفسى شيئاً .. بهذا يصبح موتى انتصاراً وليس هزيمة ..
فتحت الكلية أبوابها .. ودخلت إلى دنيا الفن الجميل .. دنيا التعبير
بالخط واللون ..

سأتحدث أول ما أتحدث باللون عن اللالون .. عن السواد .. عن الحزن ..
عن حبي الشمس .. سأقول فى لوحة تصرخ بالألوان المشتعلة .. إن الواقع
الذى نعيش فيه واقع كاذب مزيف ملئ بالمظالم .. سأحرك المشاعر وأثير
الوجدان وأدافع عن الإنسان المظلوم فى كل مكان ..
فتحت باب الفيلا ووقفت على السلم المؤدى للحديقة ..

فاجأتنى طوابير هائلة من الأسلحة الثقيلة والمصفحات متجهة إلى طريق
الإسكندرية وصكت أذنى صيحات باعة الصحف .. تعلن عن ثورة الجيش
وانقلاب ٢٣ يوليو ..

وقفت فى مكافى مشدوهة .. أتبع الطوابير التى تمر متعاقبة أمام عيني ..
نظرت إلى شجرة الشمس .. كانت موجودة .. هناك فى مكانها منتصبه

في قوة مورقة في جمال .. مرتفعة في سمو .. متغلغلة في الأرض .. واقفة
في وحدة أبدية تعلن عن انتصار الحياة ..
وكانت صلصلة سيور الدبابات تهز الأرض .. وأنا واقفة في مكاني
أبتسم ..
لقد بدأ الفجر يلوح ...